

محاورة غير المسلمين في القرآن الكريم (حججها وآدابها)

د. محمد عبد الدايم علي سليمان محمد الجندي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة والأديان - المشارك

بجامعتي الأزهر بالقاهرة.

وجامعة الملك فيصل - كلية الآداب بالإحساء

وعضو جمعية العقيدة والأديان بالجامعة الإسلامية

ملخص البحث

من ضوابط وملامح محاوره غير المسلمين في القرآن الكريم الإثبات بالحجة ولزوم الأدب ، وهذا يستدعي فينا الالتزام بأسلوب القرآن في هذا النوع الدقيق - وغيره - من المحاوره التزاما صحيحا ، وفهما سليما ، وضبطا واعيا ، ودعوة حكيمة ، لتكون إدارته أقرب إلى مراد الله تعالى منه ، فإن العقيدة الإسلامية أحوج ما تكون لهذه المحاوره بهذا الاعتبار .

فالعقيدة كانت - ولا تزال - هدف الأعداء بالتشويه والتشكيك ، وذلك لإقصائها عن موقع الصدارة والقيادة والتفعيل في جسد الأمة الكبير ، كما كانت - أيضا - فريسة لعبث بعض القائمين على الحوار مع الآخر ، حيث علقوا بها كثيرا من المفاهيم الخاطئة والتفسيرات الغربية على طبيعتها ، والمخالفة لفطرتها ، وذلك في سبيل الدفاع عنها في مادة هذه المحاوره ، إنهم أرادوا الذود عن حياضها ، لكن بلغة الخصوم المستورده وأساليبهم الغثة ؛ منصرفين عن لغة وأسلوب القرآن الكريم في المحاوره ؛ حتى أضحت المحاوره في بعض الأحيان لا تتجاوز كونها سفسطة وجدل عقيم ومراء عليل سقيم ، يزيد من حدة الخصومة واللداد ، ويفتقد الحجة والدليل والبرهان ، ويتجرد من الأدب ، ويتحول إلى هلكة نتيجة تعصب لفكرة ، أو غضبه لرأي ، بخلاف الحوار القرآني الذي يناسب جميع العقول والأفهام ؛ الحاضر منهم والبادي ، الكبير والصغير ، المتعلم والعامي . ، وغير هؤلاء من جملة الخلق .

ومن هنا أردنا أن نضع أيدينا من جديد على ملامح محاوره غير المسلمين في القرآن ، تلك المحاوره التي تبعث الاطمئنان القلبي ، والاستقرار الفكري ، والتفاعل السلوكي ، بل وتقضي على الشك والتردد الذي سجله الجدل والنقاش الذي يعتمد على افتراضات يتصورها العقل المجرد بعيدا عن هدي الوحي ، وهي لا تمثل إلا أجوبة واعتراضات ، وأجوبة على تلك الاعتراضات ، واعتراضات على تلك الأجوبة وأجوبتها ، وهكذا إلى ما لا نهاية .

الكلمات المفتاحية: حوار - غير المسلمين - السلم الفكري - الأمن - القرآن - الحجة - الأدب .

* * *

المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، المنتزه عن الشريك والولد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أرسى الحوار مع المخالف وأعلنه، وروض الجامح وأبلغه مأمناً، صلاة وسلاماً عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإنه مما لا شك فيه أن لفظة "المحاورة" من الاصطلاحات المترددة كثيراً في الآونة الأخيرة في ظل الأمواج المتلاطمة من الفتن المظلمة المتمثلة في الحروب الداخلية والخارجية، والمنازعات الإقليمية والطائفية، والمحاورة بالتّي هي أحسن هي الأصل الذي تفرّع منه معنى التعايش مع الآخر؛ أي قبول من يخالف في المذهب، والدين، والعرق، واللون، بل أصبحت ضرورة تحتاج إليها البشرية الآن لتسيير معاملاتها، وتسهيل ديمومة علاقاتها.

وتبدو الحجة وروح الحسن ومعانيه عالية في الكينونة الإسلامية حيث القرآن الكريم وأخلاق النبي ﷺ، الذي أثبت للعالم أن منهج الله في تحقيق الأمن والتعايش السلمي بين الإنسانية هو أسمى الحضارات، وقد شهد بهذا الأعداء قبل الأصدقاء، يقول "شبرل" عميد كلية الحقوق بجامعة "فيينا"، في مؤتمر الحقوق سنة ١٩٢٧:

"إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد ﷺ إليها، إذ رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرناً؛ أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوربيين أسعد ما نكون؛ لو وصلنا إلى قمته بعد ألفي سنة".

وقد سخر الله تعالى بحكاية تسامح الحوار النبوي في القرآن عامة وتسامح حوار النبي ﷺ خاصة قلوب الناس له، حتى زج فيها عناصر الأخلاق واحداً تلو الآخر، ومن يلج مسير التاريخ يدهش في وقائعه وهو يستقرئ بين دفتيه كثيراً من هذه المشاهد التي حطت ركاب القلوب عند باب طاعة النبي ﷺ مستسلمة ومدعنة لأمر ربها، ويهر القارئ حين يستقرئ التاريخ ويمر على منهج القرآن في حوار العقدي مع غير المسلم وعلو أدبه الذي تمثل في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ

إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾^(٢)، فمزق بنور تلك الفضيلة المتسامحة الظلمات، وجلا بروح الإسلام غياهب الضلالات.

مشكلة الدراسة وأسئلتها:

تتناول الدراسة موضوع حجج القرآن الدامغة وآدابه في محاوره غير المسلمين، وهي محاولة من الباحث للكشف عن أهم الدلالات التقييمية لضرورة لزوم الحججة وأدب المحاوره على نهج كتاب الله العظيم، وبيان أهمية تلك الحجج والوقوف على القيم الأخلاقية التي تركز عليها المحاوره في القرآن الكريم، ثم ربط هذه القواعد النظرية في منظومة الحوار العقدي القرآني بالواقع والتطبيق من خلال التأسي بالأخلاق النبوية للمحاوره الدعوية المثمرة في منهج رسل الله عليهم السلام، وتحدد مشكلة الدراسة بـ "محاوره غير المسلمين في القرآن الكريم.. حججها وآدابها" من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما المقصود بالمحاوره؟

- ما هي أبرز الحجج التي ارتكز عليها الحوار مع غير المسلمين في القرآن الكريم؟.

- ما هي أهم الآداب والقيم التي امتزجت بمحاوره غير المسلمين في القرآن الكريم، وما مدى إمكان تطبيقها في محاوراتنا في ظل التحديات المعاصرة؟.

أهداف الدراسة:

هدفت الدراسة إلى تحقيق المقاصد التالية:

- استنتاج أهم الدلائل والحجج في محاوره غير المسلمين في القرآن الكريم والاستفادة منها في محاوراتنا المعاصرة.

- تتبع أهم القيم والآداب الحوارية من خلال توجيهات القرآن الكريم.

(١) سورة العنكبوت: من الآية ٤٦.

(٢) سورة يونس: آية ٩٩.

- الوقوف على أهم التطبيقات العملية لأدب المحاوره وحججها في منهج النبي صلى الله عليه وسلم والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

حدود الدراسة:

ستقتصر الدراسة على دراسة حجج وآداب المحاوره في القرآن الكريم مع غير المسلمين والاستفادة منها في معالجة الانحرافات العقديّة، وذلك في ضوء المحاورات النبوية التي جرت بين الأنبياء عليهم السلام وبين أقوامهم، وبين النبي صلى الله عليه وسلم ومشركي مكة وأهل الكتاب من اليهود والنصارى.

منهجية الدراسة:

بما أن هذه الدراسة تتناول حجج وأدب امحاوره غير المسلمين في القرآن، فإن المنهج الوصفي التحليلي هو المنهج المناسب لهذه الدراسة، حيث سيقوم الباحث بوصف وتحليل أهم الآداب التي تتواءم مع منهج الإسلام وتوجهاته في محاوره أهل الزيغ والضلال من المشركين وأهل الكتاب وأنساقهم لفهم أهم الآثار العلاجية والإصلاحية المترتبة على تلك الآداب.

إجراءات الدراسة:

- اتبعت الدراسة عدة إجراءات من أهمها ما يلي:
- تحديد مصادر الدراسة المتمثلة بالمراجع الأولية والثانوية.
- استنباط مفهوم الحوار من المصادر المتخصصة.
- استخلاص أهم حجج وآداب محاوره غير المسلمين من خلال القرآن الكريم.
- إيراد بعض التطبيقات النبوية لحجج وآداب المحاوره في القرآن.

الدراسات السابقة:

كثرت الدراسات العلمية حول موضوع الحوار بشكل عام، ولعل إضافة الباحث تكمن في بيان محاوره غير المسلمين بالذات في القرآن الكريم، وليس على إطلاقها، وذلك لتأصيل منهجية الحوار مع غير المسلمين على نفس نهج القرآن الكريم، ورغم تناول بعض الدراسات لبعض جوانب الحوار مع غير المسلمين من

خلال القرآن الكريم، إلا أن كل دراسة قرآنية تضيف جديداً، فالقرآن مليء بالتوجيهات والتعاليم التي لا تنتهي عند حد، ولا تحصى بعدد، وكان من بين هذه الدراسات على سبيل المثال وليس الحصر ما يأتي:

١. دراسة أحمد كمال أبو المجد، حوار لا مواجهة، (ط. دار الشروق، القاهرة ١٩٨٨م).
٢. دراسة تيسير محجوب الفتياي، الحوار في السنة (منشورات مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، الأردن، ١٩٩٩م).
٣. دراسة رقية طه جابر العلواني، فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية، (نشر مؤسسة جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، المدينة المنورة ط. أولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).
٤. ومنها دراسة محسن بن محمد بن عبد الناظر، حوار الرسول ﷺ مع اليهود: (ط. دار الدعوة، الكويت، ط. أولى، سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م).
٥. دراسة محمود محمد عمارة، من أجل حوار لا يفسد للود قضية، (ط. مكتبة الإيمان، المنصورة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
٦. دراسة سعد بن ناصر الشثري، أدب الحوار، ط. كنوز إشبيلية؛ سنة النشر: ١٤٢٧ - ٢٠٠٦م.
٧. دراسة عمر عبد الله كامل، أدب الحوار وقواعد الاختلاف، وهو بحث مقدم في مؤتمر موقف الإسلام من الإرهاب، في جامعة الإمام محمد بن سعود.
٨. دراسة شيخ الأزهر الأسبق الشيخ الدكتور محمد سيد طنطاوي، أدب الحوار في الإسلام، طبعة دار نهضة مصر سنة ١٩٩٧م.
٩. الحوار الإسلامي المسيحي، بسام داود عجك، ط ١، دار قتيبة، ١٤١٨هـ.
١٠. الحوار وأدابه في الإسلام، صالح بن حميد، ط. دار المنارة.
١١. دراسة روجيه غارودي، بعنوان: من أجل حوار بين الحضارات، صدر في فرنسا عام ١٩٧٧م وتم تعريبه عام ١٩٧٧م من قبل عادل العوات، ط. دار عويدات بيروت.

خطة البحث:

تتكون الدراسة التي صدرها الباحث بعنوان (محاورة غير المسلمين في القرآن الكريم حججها وآدابها)، من مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة: التمهيد، وفيه تحديد المفاهيم. المبحث الأول: الحججة في محاورة غير المسلمين في القرآن. المبحث الثاني: أدب محاورة غير المسلمين في القرآن. الخاتمة: وفيها أهم النتائج والتوصيات ولا يزعم الباحث أن هذا البحث يحوى بين دفتيه كل عناصر القضية، ولكنه جهد المقل، وعلى الله قصد السبيل. والله ولي التوفيق والسداد

* * *

التمهيد

تحديد المفاهيم:

من مقتضيات البحث العلمي تحديد مفاهيم مصطلحات عنوانه التي يعتمد عليها، وهذا ما التزم به الباحث فيما يأتي:

مفهوم المحاور:

من الحوار: ومعنى الحوار: جاء في معجم مقاييس اللغة: "الحاء والواو والراء ثلاثة أصول أحدها لون، والآخر الرجوع، والثالث أن يدور الشيء دوراً.. فأما الأول فالحوَر: شدة بياض العين في شدة سوادها.. ويقال: حَوَّرْتُ الثياب أي بيضتها... ويقال لأصحاب عيسى عليه السلام حواريون لأنهم كانوا يحوِّرون الثياب أي يبيضونها، هذا هو الأصل ثم قيل لكل ناصر حَوَّاري.. وأما الرجوع فيقال: حار إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾^(١)، والعرب تقول: الباطل في حور، أي رجع ونقص، وكل نقص ورجوع حَوْر.. وتقول: كلمته فما رجع إلي حَوَّاراً وحَوَّاراً ومَحْوَرَةً وحَوَّيراً.. والأصل الثالث: المحور: الخشبة التي تدور فيها المحالة"^(٢).

وفي المحيط "الحَوْرُ: الرَّجُوعُ إِلَى الشَّيْءِ وَعَنهُ. وَحَارَتِ الغُصَّةُ تَحْوَرُ: انْحَدَرَتْ، وَأَحَارَهَا صَاحِبُهَا. وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَغَيَّرُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ: فَقَدْ حَارَ، وَالمُحَاوَرَةُ: مُرَاجَعَةُ الكَلَامِ، حَاوَرْتُ فلاناً، وَأَحَرْتُ إِلَيْهِ جَوَاباً، وَالمَحْوَرُ: مَرَجُوعُ الجَوَابِ، وَمَا أَحَارَ بِكَلِمَةٍ. وَالحَوَّيرُ: المُحَاوَرَةُ، وَكذلك الحَوَّارُ والحَوْرُ وَالمَحْوَرَةُ أيضاً"^(٣).

واستعمل لفظ المحاوره عند عرب الجاهلية بمعناه المعروف اليوم، وقد ورد

(١) سورة الانشقاق: آية ١٤.

(٢) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادة حور، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (ط دار الفكر - بيروت ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م) ص ٢٨٧-٢٨٨.

(٣) أبو القاسم إسماعيل ابن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني، المحيط في اللغة، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، (ط. عالم الكتب - بيروت - لبنان - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م) ج ٣، ص ٢٠٠.

في معلقة عنتره قوله عن فرسه:

فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرةٍ وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي^(١)
وفي لسان العرب: "الحور: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، حار إلى الشيء
وعنه حوراً ومحاراً ومحارةً وحؤوراً: رجع عنه وإليه"^(٢).
وقال الفراهيدي: الحور "الرجوع إلى الشيء وعنه والغصة إذا انحدرت يقال
حارت تحور وأحار صاحبها وكل شيء تغيّر من حال إلى حال فقد حار يحور
حوراً"^(٣).

وفي تاج العروس: الحور: الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، والحور: التّقصان
بعد الزيادة، لأنّه رجوعٌ من حالٍ إلى حال، والحور: ما تحت الكور من العمامة،
يقال: حار بعد ما كاز، لأنّه رجوع عن تكويرها"^(٤).

وقد اقتضى الحوار العقدي القرآني عدم الإكراه، فهو يعتمد على الإقناع
وخطاب العقل، وأن لا يكره أحد على اعتقاد ما لا يقتنع به، وأن لا يحمل السلاح
على معارض أو مخالف إلا في ظروف معينة وحالات مخصوصة، والحوار العقدي
القرآني وسيلة مثلى من وسائل الدعوة إلى الله تعالى، وقد انبثق عن نهج القرآن في
الحوار صوراً أخرى من الحوار، كفن التفاوض وإقامة العلاقات وإدارة
المحاورات.

(١) أبو عبد الله الحسين الزوزني، شرح المعلقات السبع، معلقة عنتره بن شداد، (ط. مكتبة المعارف -
بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م) ص ١٢٩.

(٢) ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفيقي المصري، لسان العرب، مادة حور (ط. دار صادر،
بيروت، لبنان د، ت) ج ٤، ص ٢١٧.

(٣) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي ود. إبراهيم
السامرائي (ط. دار ومكتبة الهلال، د. ت) ج ٣، ص ٢٧٨.

(٤) محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي، تاج العروس من
جواهر القاموس، (ط. دار الهداية، د. ت) ج ١١، ص ٩٦ - ٩٧.

غير المسلمين:

المراد بهم كل من لم يعتقد بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من التشريعات والغيبيات والعقائد، ويشمل المشركين والملحدين والمرتدين واليهود والنصارى وغيرهم.

"حججها"، التعريف بالحجة:

من خلال مراجعة أصول المادة اللغوية لكلمة "حجة" نصل إلى أن أصل الكلمة يرجع إلى "حج" أي "قصد" وقد تفرع من هذا الأصل فروعٌ متنوعة تمت إلى هذا الأصل اللغوي، ففي المصباح المنير: "فَالْحُجُّ الْقَصْدُ لِلنَّسْكِ، وَالْحُجَّةُ الدَّلِيلُ وَالْبِرْهَانُ وَالْجَمْعُ حُجَجٌ" مثل غرفة وغرف، و"حَاجَّةٌ" "مُحَاجَّةٌ" "فَحَجَّةٌ" "يَحُجُّهُ" من باب قتل إذا غلبه في الحُجَّةِ^(١).

وفي المفردات "الحجة: الدالة المبينة للحجة أي المقصد المستقيم الذي يقتضي صحة أحد النقيضين.. والمحااجة: أن يطلب كل واحد أن يرد الآخر عن حجته ومحجته"^(٢).

وقال الفراهيدي: "الْحُجَّةُ: وَجْهُ الظَّفَرِ عِنْدَ الخُصُومَةِ. وَالْفِعْلُ حَاجَجْتُهُ فَحَجَجْتُهُ. وَاحْتَجَجْتُ عَلَيْهِ بِكَذَا. وَجَمْعُ الْحُجَّةِ: حُجَجٌ"^(٣).
"والْحُجَّةُ: البرهان وَ حَاجَّةٌ فَحَجَّةٌ من باب رد أي غلبه بالحجة وفي المثل ليج فحج فهو رجل مُحَجَّجٌ بالكسر أي جدل وَ التَّحَاجُّ التَّخَاصُمُ وَ المَحَجَّةُ بفتححتين

(١) المقري، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، تحقيق: يوسف الشيخ محمد (ط. المكتبة العصرية، د. ت) ص ١٠، وانظر: الزبيدي، أبو الفيض، محمد الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (ط. دار الهداية، د. ت) ج ٢، ص ٦٧.

(٢) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، (ط. دار المعرفة - بيروت د. ت) ص ١٠٧-١٠٨.

(٣) الفراهيدي، أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي (ط. دار ومكتبة الهلال، د. ت) ج ٣، ص ٩.

جادة الطريق"^(١)

"والْحُجَّةُ: وَجْهُ الظَّفَرِ عِنْدَ الخُصُومَةِ. وَالْفِعْلُ حَاجَجْتُهُ فَحَجَجْتُهُ. وَاحْتَجَجْتُ عَلَيْهِ بِكَذَا. وَجَمْعُ الحُجَّةِ: حُجَجٌ"^(٢).

وعن طريق الحجة يتم "كسب تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناع ذلك المتلقي عن طريق إشباع مشاعره وفكره معاً حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطابة - الخطاب"^(٣).

والحوار القرآني واضح في حكاية أسلوب الحجاج، وهو حوار يفهمه العامة والخاصة، ويقيم الحجة على الناس جميعاً، فقد "أخرج الله تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة"^(٤).

"آدابها"، مفهوم الأدب:

يدور مفهوم الأدب حول مكارم الأخلاق وتقويمها وتهذيبها وحسن الخلق والتأديب وترويض النفس، والمعاقبة على الإساءة، وفيما يأتي بيان ذلك:

الأدب في التعريفات هو: "معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ"^(٥).
وفي المصباح المنير وكذا في تاج العروس "الأدب" يقع على كل رياضة محمودة يَتَخَرَّجُ بها الإنسان في فضيلة من الفضائل وقال الأزهري نحوه: "فالأدب" اسم لذلك

(١) الرازي، محمد بن أبي بكر، تحقيق: محمود خاطر، (ط. مكتبة لبنان ناشرون - بيروت، ١٤١٥ - ١٩٩٥) ص ١٦٧.

(٢) المقري، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، تحقيق: يوسف الشيخ محمد (ط. المكتبة العصرية، د. ت) ص ١٠، وانظر: الزبيدي، أبو الفيض، تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٢، ص ٦٧.

(٣) حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي، مجلة عالم الفكر، عدد ١، مجلد ٣٠، الكويت (٢٠٠١م) ص ١٠٩-١١٠.

(٤) السيوطي، الإتيان في علوم القرآن (ط. الحلبي، القاهرة، ط. رابعة، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٨م) ج ٢، ص ١٧٢.

(٥) الجرجاني، علي بن محمد بن علي، التعريفات، تحقيق: إبراهيم الأبياري (ط. دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ) ج ٢٩.

والجمع "آداب" مثل سبب وأسباب و"أدبته" "تأديباً" مبالغة وتكثير ومنه قيل "أدبته" "تأديباً" إذا عاقبته على إساءته؛ لأنه سبب يدعو إلى حقيقة الأدب، الأدب: حُسْنُ الأخلاق وفِعْلُ المَكَارِمِ"^(١).

وفي المعجم الوسيط "أدب فلان أدبا: راض نفسه على المحاسن، أدبه: راضه على محاسن الأخلاق ولقنه فنون الأدب وجازاه على إساءته، ويقال أدب الدابة روضها وذلها، ويقال تأدب: تعلم الأدب، ويقال تأدب بأدب القرآن أو أدب الرسول احتذاه، والأدب: رياضة النفس بالتعليم والتهديب على ما ينبغي، وجملة ما ينبغي لذي الصناعة أو الفن أن يتمسك به كأدب القاضي، وأدب الكاتب، والجميل من النظم والنثر، وكل ما أنتجه العقل الإنساني من ضروب المعرفة، والتأديب: التهديب والمجازاة ومجلس التأديب شبه محكمة يراد منه المحافظة على المصلحة العامة"^(٢).

وقد جمع الحوار القرآني كل أطراف الأدب، فلا يتصور أن أحداً - في أي وقت أو أي موقع - أن ينكر هذه الحقيقة أو يشكك في مصداقيتها، وأدب الحوار في القرآن يختلف عن أدب حوار الناس بعيداً عن منهج القرآن، فقد نجد الأدب في حوار الناس للناس في وقت من الأوقات، ثم لا نلبث إلا قليلاً ويبدو وهنه وضعفه وانقشاعه، أما أدب الحوار في القرآن الكريم فهو باق، لا يُغيّرُه من ذلك زمان ولا مكان ولا إنسان.

* * *

(١) المقري، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، تحقيق: يوسف الشيخ محمد (ط. المكتبة العصرية، د. ت) ص ١٠، وانظر: الزبيدي، أبو الفيض، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس، (ط. دار الهداية، د. ت) ج ٢، ص ١٢.

(٢) إبراهيم مصطفى - أحمد الزيات - حامد عبد القادر - محمد النجار، المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، (ط. دار النشر: دار الدعوة، د. ت) ج ١، ص ٩ - ١٠ باختصار.

المبحث الأول

الحجة في محاورة غير المسلمين في القرآن

إن الحوار مع أهل الشرك والكفر في القرآن الكريم يتسم بالحجة والإقناع في أعمق وأدق القضايا وأخطرها، فالقرآن في ذاته قوة حوارية معجزة لأنه وحي الله، ولا يوجد في الإسلام ما يسمى بمنع الحوار، ولم يكن فيه إجراءات معقدة لبدء الحوار أو ممارسته، ولم يكن لديه شروط مسبقة للدخول في الحوار، والإسلام لم يفرق بين كبير وصغير في التوجيه إلى إلزام الحجة عند الحوار، أو حر وعبد، أو رجل وامرأة، أو حاكم ومحكوم، فهو يحاور الملوك والأمراء كما يحاور العبيد، ويحاور المسلمين كما المشركين واليهود والنصارى، ويحاور الرجال كما يحاور النساء.

وقد حاور النبي ﷺ غير المسلمين ودعاهم إلى تنزيه الله وتوحيده، ولم يُعرف عنه ﷺ أنه اعترض على محاورة أحد حتى هؤلاء اليهود الذين توفلوا^(١) معارج المكر وتسمنوا ذروة العدا، لأن علة الحوار لم تكن انتقاماً من أحد، أو انتصاراً على أحد بشخصه، إنها انتصار للعقيدة وإثبات لصحتها، ودعوة إليها ليس أكثر، وإن المستقضي للحديث النبوي الشريف ليجد أنه جعل الحوار ركيزة قوية من ركائز الدعوة إلى الله والإعلام بدينه للإقناع العقلي والاطمئنان القلبي لتثبيت العقيدة^(٢).

والحوار القرآني مع غير المسلمين مليء بآداب وقواعد الحوار، وهو ما يكشف عوار السفسطة والجدل العقيم الذي يمارسه أهل العجب بالرأي، ولهذا قال الإمام

(١) توفلوا: من "وقل بالفتح، إذا توفل في الجبل، أي تصعد، وتوفلت الجبل: علوته"، انظر: الصحاح؛ تاج اللغة و صحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (ط.، دار العلم للملايين - بيروت، ط. رابعة - يناير ١٩٩٠م) ج٦، ص ١٢٢.

(٢) تيسير محجوب الفتيا، الحوار في السنة (منشورات مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، الأردن، ١٩٩٩م) ص ١١.

مالك - رحمه الله تعالى :- "أو كلما جاءنا رجلٌ أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد ﷺ لجدل هؤلاء"^(١).

وبالعودة لأسلوب القرآن الكريم في الحوار وتناوله لمسائل العقيدة نصل إلى نتيجة حتمية؛ هي ضرورة الحجة للوصول إلى الإقناع، بعيداً عن المراء العقيم والسفسطة الجدلية والثثرة العقيمة.

والرجوع إلى منهج كتاب الله في الحوار ليس عوداً إلى الوراء كما يدعي الحداثيون والعلمانيون، وليس هروباً من الواقع والحدث أو فراراً من العصر ولغته، وليس انفلاتاً من الحاضر وانكفاءً على الماضي، بل إن الالتزام بمنهج القرآن في حوار العقدي يستوعب كل التوجهات الإنسانية بكل مستجداتها وألوانها وتحدياتها، ويصوغ علاجاً لكل ما يستحدث من ألوان الانفلات العقدي، لا عجب من ذلك فهو كلام الله الخالق، العالم بخفايا الأمور وما تكون عليه في قابل الأيام على تلونها وتجدها، وكتابه المعجزة الخالدة، والحجة الباقية؛ فمن أحسن من الله قيلاً، ومن أحسن منه حديثاً؟! وفيما يلي نسوق جملة من ملامح حجج الحوار القرآني لنقف على معالم إثرائه وقوته، وفائدته وقيمته:

الحجة الدامغة ودفع الشبهة:

إن حوار القرآن إعجاز كله، والقرآن مليء بالحجج الدامغة القوية الداحضة للشبهات بأنواعها، وهو يستدعي سلوك منافذ الإقناع، والافتناع هو أساس العقيدة الذي لا يمكن أن يفرض فرضاً وإنما ينبع من داخل الإنسان، ويتميز الحوار القرآني بالقوة في إيجازه وفي بيانه وفي إسهابه "فإيجازه معجز، وإطنابه معجز، وألفاظه معجزة، وأساليبه معجزة، ونظمه معجز، كل هذا معجز، وكذا استدلاله وجدله

(١) الأصبهاني، إسماعيل بن محمد أبو القاسم: الحُجَّة في بيان المحجَّة، بتحقيق محمد ربيع بن هادي المدخلي، (ط. دار الراجعية، الرياض، السعودية، ط. أولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م) ج ٢، ص ٤٥٥، واللالكائي، هبة الله بن الحسن أبو القاسم، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم، بتحقيق أحمد سعد حمدان، (ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية) ج ١، ص ١٤٤.

وبيانه، لا يصل إلى درجته نوع من الكلام... والفرق بين القرآن وكلام أعلى أئمة البيان يجعل الموازنة غير مستقيمة، فالفرق بينه وبين القرآن هو كالفرق بين الخالق والمخلوق؛ لأنه فرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق^(١)، وتنطلق الحجة في الحوار القرآني من عدة نقاط أجملها فيما يأتي:

أولاً: وضوح الحجة:

إن ترك الواضح الجلي في الحوار، والالتجاء إلى الدقيق الغامض الخفي نوع من التكلف لا يفهمه إلا الخاصة، وهو ينافي قصد الشارع من هداية الناس وبيان الحق لهم بسهولة ويسر.

فهذا التكلف العقيم لا يوجد في الحوار القرآني "فالقرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قال: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾^(٢).

والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخطأ إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون، ولم يكن مُلغِزاً، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجل صورة تشتمل على أدق دقيق، لتفهم العامة من جليلها ما يُقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يوفي على ما أدركه فهم الخطباء^(٣).

(١) أبو زهرة، محمد: المعجزة الكبرى، (ط. دار الفكر العربي، القاهرة، دت) ص ٣٤٣.

(٢) سورة إبراهيم: آية ٤.

(٣) الزركشي، محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط. عيسى البابي الحلبي، مصر، ط. ثانية، ١٣٩١هـ-١٩٧٢م) ص ٢٤. وانظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق علي محمد الجاوي، (ط. دار الثقافة العربية

والحوار الاستدلالي العقدي القرآني يدل على الحقائق في ذاتها، "فبراهين القرآن وحججه دالة على الأمور المعينة، كأسماء الله وصفاته، والملائكة، والرسول، والكتب، والعرش، والكرسي، والجنة والنار، وما وقع للأنبياء مع أقوامهم من قصص وأحداث معينة، وكذلك ما أخبر به الله تعالى ورسوله من الأمور المستقبلية وغير ذلك، كلها أمور معينة ليست من نوع القضايا الكلية التي لا تكون إلا في الذهن، ولا تمنع من وقوع الشركة فيها، كما هو حال - مثلا - كلام المنطقة وجدلهم، فأقيستهم التي هي عندهم برهانية لا تفيد إلا أمورا كلية، ولا تدل على شيء معين"^(١).

ومن صور المحاجة الواضحة في القرآن؛ محاجة النمرود لإبراهيم عليه السلام في شأن الله الواحد الأحد سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ قَبِهُتُمُ الَّذِي كَفَرُوا بِاللَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢)، و"الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ هُوَ" النمرود بن كنعان، وهو أول من تجرّب في الأرض وادّعى الربوبية، ولما أوتي الملك حاجّ في الله تعالى، وفي المحاجة وجهان محتملان: أحدهما: أنه معارضة الحجة بمثلها، والثاني: أنه الاعتراض على الحجة بما يبطلها، إذ قال إبراهيم: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ: أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ؛ يريد أنه يحيي من وجب عليه القتل بالتخلية والاستبقاء، ويميت بأن يقتل من غير سبب يوجب القتل، فعارض اللفظ بمثله، وعدل عن اختلاف الفعلين في علتها"^(٣).

للطباعة، بيروت، لبنان، ١٩٦٩م) ج ١، ص ٤٥٦.

(١) زاهر بن عواض الألمعي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، (ط. مطابع الفرزدق التجارية، السعودية، د.ت) ص ٤١٥ - ٤١٦.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥٨.

(٣) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، (تفسير الماوردي) النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم (دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان - د.ت) ج ١، ص ٣٢٩.

وقد أفحم إبراهيم النمرود بالحجة، وأغرقه في عين باطله ليقر بهوانه وضعفه، ورغم ذلك لم يقطع إبراهيم حوارته معه، بل جراه حتى أثبت وهنه، وفضح أمره على العالمين "قَالَ إِبْرَاهِيمُ: فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَ عَدَلَ إِبْرَاهِيمُ عَنْ نَصْرَةِ حِجَّتِهِ الْأُولَى إِلَى غَيْرِهَا، وَهَذَا يَضْعَفُ الْحِجَّةَ وَلَا يَلِيْقُ بِالْأَنْبِيَاءِ؟ فففيه جوابان: أحدهما: أنه قد ظهر من فساد معارضته ما لم يحتاج معه إلى نصرته حجته ثم أتبع ذلك بغيره تأكيداً عليه في الحجة، والجواب الثاني: أنه لما كان في تلك الحجة إشغاب منه بما عارضها به من الشبهة أحب أنه يحتاج عليه بما لا إشغاب فيه، قطعاً له واستظهاراً عليه قال: فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ، أي تحيّر، وقيل انقطع"^(١)، وتلك عاقبة المجادل بالباطل ليدحض به الحق.

والحجاج في العقيدة يقع في أمور بديهية معلومة للجميع، ولكنه الكبر والعناد بالباطل، ومنه ما وقع مع النبي ﷺ من محاجة أهل الكتاب في عيسى عليه السلام، فقص الله عليهم قصته وأخبرهم حقيقته ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿فَمَنْ حَاجَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٢)، فكانت المباهلة وهي فيصل الحوار عقب المعاندة.

وحجاج القرآن مع أهل الشرك يبدأ متدرجاً حتى يفهم الجاهل قبل العالم فتقوم الحجة على الناس جميعاً، فحجة الله واضحة مقنعة حتى لا يكون للباطل سبيل، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً.

ثانياً: حجة الحوار القرآني ملجئة مفحمة معجزة:

منذ إشراقة كتاب الله بالهدى على البسيطة وإلى الآن، بل وإلى يوم القيامة

(١) نفس المصدر، ص ٣٣٠.

(٢) سورة آل عمران: آية ٦١.

والقرآن يحاور، فهو الذي أثار في العرب دافع التحدي، واستدعى فيهم باعث المواجهة حتى صار سجية فيهم، وتحداهم في منطق ألسنتهم وبلاغتهم، وهذا غاية التحدي، وقمة التحدي في أمية صاحب الرسالة القائم بالمحاورة والمجادلة ﷺ، "فمن دلائل نبوته ﷺ أنه كان أمياً لا يخط كتاباً بيمينه ولا يقرأه، ولد في قوم أميين ونشأ بين ظهرانيهم في بلد ليس بها عالم يعرف أخبار المتقدمين، وليس فيهم منجم يتعاطى علم الكوائن، ولا مهندس يعرف التقدير، ولا فيلسوف يبصر الطبائع، ولا متكلم يهتدي لرسم الجدل ووجوه المحاجة والمناظرة والاستدلال بالحاضر على الغائب، ولم يخرج في سفر ضارباً إلى عالم فيعكف عليه ويأخذ منه هذه العلوم، وكل هذا معلوم عند أهل بلده مشهور عند ذوي المعرفة والخبرة بشأنه؛ يعرفه العالم والجاهل والخاص والعام منهم، فجاءهم بأخبار التوراة والإنجيل والأمم الماضية، وكانت معالم تلك الكتب قد ذهبت ودرست وحرفت عن مواضعها، ولم يبق من المتمسكين بها وأهل المعرفة بصحيحها من سقيمها إلا القليل، ثم حاج كل فريق من أهل الملل المخالفة له بما لو احتشد له حذاق المتكلمين وجهابذة المحصلين لم يتهياً لهم نقض شيء منه، فكان ذلك من أدل شيء على أنه أمر من عند الله عز وجل، فمن دلائل نبوته ﷺ وصدقه فيما جاء به من عند الله سبحانه من القرآن العظيم أنه تحدى الخلق بما في القرآن من الإعجاز، ودعاهم إلى معارضته والإتيان بسورة مثله فنكلوا عنه وعجزوا عن الإتيان بشيء" (١).

وقد تدرج "معهم في التحدي - على سبيل التنزل - فتحداهم أن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور منه، ثم بسورة منه ولو من قصاره، فما استطاعوا ولن يستطيعوا ولو كان بعضهم لبعضهم ظهيراً" (٢).

(١) البيهقي، أحمد بن الحسين، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، بتحقيق: أحمد عصام الكاتب (ط. دار الآفاق الجديدة - بيروت، طبعة الأولى، سنة ١٤٠١) ج ٢٥٨.

(٢) الزركشي، محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ١٠٨-١١٠، باختصار.

والقرآن حاور المشركين في عقائدهم وألزمهم الحجة والبرهان، وتصدى لهم، وناظرهم فيما يعتقدونه، فما استطاعوا له رداً، ولا عنه حولاً، وفي قصة الوليد بن المغيرة وإيفاد قريش له إلى النبي ﷺ بغية أن يقطعه ويكفهم عبدة "إن الوليد بن المغيرة كان سيد قريش، وأحد فصحاءهم، لما سمعه - أي القرآن - أخرج لسانه، وبُلد جنانه، وأطفئ بيانه، وقطعت حجته، وقصم ظهره، وظهر عجزه، وذهل عقله"، حتى قال قوله المشهور: "إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو ولا يُعلو عليه" (١).

رجع الوليد إلى قومه خاسئاً وهو حسير؛ إذ لم تفلح محاورته أمام حجة القرآن البالغة، وكان عبدة لكل ثثار زعم في الإسلام زعماً أو افتري عليه افتراءً. وهم كثر، والقرآن حكى مقالهم وخيبة حوارهم ومن تبعهم من أنساقهم ونظرائهم وأشباههم إلى يوم القيامة، ومنه على سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنًا أَتَانَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ (٤٩) ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ (٥٠) ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِهِمْ فَمَسِيئُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُعْضِدُنَا إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (٥١) (٢).

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ (٩٠) ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ تَحْتِهَا عَيْنٌ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ (٩١) ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِغَةً وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا﴾ (٩٢) ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُفِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِنْبًا نَّقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٣).

وقال: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٥٥) ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (٦) ﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ (٧) ﴿أَوْ

(١) نفس المصدر ص ١١٠.

(٢) الإسراء: ٤٩-٥١.

(٣) الإسراء: ٩٠-٩٣.

يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَل فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴿١١﴾، ويأتي الإفحام القرآني ليغلق أفواه هؤلاء جميعا في كلمات معدودة معجزة في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِأَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلُقَاءَ الْأَرْضِ ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا نَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴿١٢﴾.

وباستقصاء نتائج الإفحام والإلجام في هذه الآيات نستقرئ تلو كل استفهام إلهي في الحوار والجدل حول الله تعالى عجزا عن المداهمة من قبل أهل الشرك، والجواب يكون بالاستسلام والإذعان، ف"قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ﴿٥٩﴾، لا شك أن الجواب الذي لا جواب لهم البتة غيره سيكون: هو أن القادر على خلق السماوات والأرض وما ذكر معها، خير من جمادٍ لا يقدر على شيء، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ اللَّهِ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴿٦٠﴾، لا شك أن الجواب الذي لا جواب غيره كما قبله، فلما تعين اعترافهم وبخهم منكرًا عليهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ اللَّهِ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلُقَاءَ الْأَرْضِ ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا مَّا نَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؕ أَلَيْسَ اللَّهُ قَلِيلًا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴿١٢﴾.

(١) الفرقان: ٥-١٠.

(٢) النمل: ٥٩-٦٤.

يَعْلَمُونَ ﴿ ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجَوَابَ كَمَا قَبْلَهُ. فَلَمَّا تَعَيَّنَ إِقْرَارُهُمْ بِذَلِكَ وَبَحْثَهُمْ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ﴾ ﴿ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجَوَابَ كَمَا قَبْلَهُ، فَلَمَّا تَعَيَّنَ إِقْرَارُهُمْ بِذَلِكَ وَبَحْثَهُمْ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿ ثُمَّ قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ أَسْمَاءٍ وَالْأَرْضِ ﴾، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجَوَابَ كَمَا قَبْلَهُ، فَلَمَّا تَعَيَّنَ الْإِعْتِرَافُ وَبَحْثَهُمْ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَانُوا بَرَهْنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿^(١)».

وهو لا شك أسلوب حوار يبيهر ويبهت كل مخالف منكر، ومن جماله تصدره دائما ب (أم) وهي "منقطعة بمعنى بل للإضراب الانتقالي من غرض إلى غرض مع مراعاة وجود معنى الاستفهام أو لفظه بعدها لأن (أم) لا تفارق معنى الاستفهام، وقد انتقل بهذا الإضراب من الاستفهام الحقيقي التهكمي إلى الاستفهام التقريري، ومن المقدمة الإجمالية وهي قوله: ﴿أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ خَيْرٌ أَمَا يُشْرِكُونَ﴾، إلى الغرض المقصود وهو الاستدلال، والاستفهام تقرير دل عليه قوله في نهايته في ﴿أَأَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ فهو تقرير لإثبات أن الخالق والمنبت والرازق هو الله، وهو مشوب بتوبيخ، فلذلك ذيل بقوله ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ والخطاب ب (لكم) موجه إلى المشركين للتعويض بأنهم ما شكروا نعمة الله، وذكر إنزال الماء لأنه من جملة ما خلقه الله، ولقطع شبهة أن يقولوا: إن المنبت للشجر الذي فيه رزقنا هو الماء، اغترارا بالسبب فبودروا بالتذكير بأن الله خلق الأسباب، وهو خالق المسببات بإزالة الموانع والعوارض العارضة لتأثير الأسباب وبتوفير القوى الحاصلة في الأسباب، وتقدير المقادير المناسبة للانتقاء بالأسباب، فقد ينزل الماء بإفراط فيجرف الزرع

(١) محمد الأمين الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (ط. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م) ج ٣، ص ٢٠-٢١.

والشجر أو يقتلها، ولذلك جمع بين قوله ﴿وَأَنْزَلْنَا﴾ وقوله ﴿فَأَنْبَتْنَا﴾ تنبيها على إزالة الشبهة^(١).

إن الله عز وجل يعلمنا - من خلال أسلوب القرآن نفسه - كيف نحاور المخالف، فهو يورد الشبهات والأقوال الشنيعة التي يقولها أعداؤه، ثم يردّ عليها ويفندها بالحجج الدامغة، فقد ذكر مثلا قول فرعون ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(٢)، وقوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(٣)، وقول النمرود ﴿أَنَا أَحْيَى وَأَمِيتٌ﴾^(٤)، وقول اليهود والنصارى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾^(٥)، وغير ذلك كثير، والله تعالى قادر على إهلاك هؤلاء جميعا بكفرهم، ولكنه أملى لهم وحاورهم على لسان أنبيائه، لتكتمل عليهم الحجة يوم القيامة، ولم يمنعه سبحانه كفر من كفر عن دعوته ﴿أَفَنْضِرُ بِعَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾^(٦).

إن طريقة القرآن الكريم في إدارة الحوار وتوجيه العقول والمشاعر لإدراك أعمق الحقائق أيسر وأشمل وأقوم "فعلى الناظرين في القرآن الكريم والداعين إلى نشر قضاياه ومبادئه أن يعملوا على إشاعة الأسلوب القرآني، وتقريبه بما يرفع الحجب الاصطلاحية عن وجهه الجميل، حتى لا تغرق معانيه في خضم الاصطلاحات المنطقية والفلسفية"^(٧).

وآيات المحاجة في الحوار العقدي القرآني كثيرة جدا ومنها قوله تعالى أيضا:

(١) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، لتحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، (مؤسسة التاريخ العربي، بيروت - لبنان، ط. أولى، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م) ج ١٩، ص ٢٨٥.

(٢) سورة النازعات: ٢٤.

(٣) سورة القصص: ٣٨.

(٤) سورة البقرة: ٢٥٨.

(٥) سورة التوبة: ٣٠.

(٦) سورة الزخرف: ٢٥.

(٧) محمد صادق عرجون، القرآن العظيم؛ هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، (مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م) ص ٢٨٣-٢٨٤ "بتصرف".

﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(١)، فَلَمَّا صَحَّ اعْتَرَفُفَهُمْ وَبَخَّهْمُ مُنْكَرًا شُرْكَهْمُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^(٢)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٣)، فَلَمَّا صَحَّ صَحَّ إِقْرَارُهُمْ وَبَخَّهْمُ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ شُرْكَهْمُ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٤)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾^(٥)، فَلَمَّا صَحَّ اعْتَرَفُفَهُمْ؛ وَبَخَّهْمُ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٦)، وَقَوْلُهُ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيْبُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٧)، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجَوَابَ الَّذِي لَا جَوَابَ لَهُمْ غَيْرُهُ هُوَ: لَا، أَي: لَيْسَ مِنْ شُرَكَائِنَا مَنْ يَقْدِرُ عَلَيَّ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ الْمَذْكُورِ مِنَ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْإِمَاتَةِ وَالْإِحْيَاءِ، فَلَمَّا تَعَيَّنَ اعْتَرَفُفَهُمْ وَبَخَّهْمُ مُنْكَرًا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿سُبْحٰنَهُ، وَنَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٨)، وَالْآيَاتُ بِنَحْوِ هَذَا كَثِيرَةٌ جَدًّا، وَهَذِهِ الْأَسْتِفْهَامَاتُ التَّقْرِيرِيَّةُ، يُرَادُ مِنْهَا أَنَّهُمْ إِذَا أَقْرَأُوا رَتَّبَ لَهُمُ التَّوْبِيخَ وَالْإِنْكَارَ عَلَيَّ ذَلِكَ الْإِقْرَارِ؛ عَلَيَّ نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾^(٩)، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَيْبِي رَبًّا﴾^(١٠) وقوة التأثير الحوارية في القرآن عظيمة على النفوس حتى جعلت أهل الكفر والإلحاد وأهل الشرك يحطون ركا بهم عند بابه قال تعالى في شأن بعض

(١) سورة العنكبوت: ٦١.

(٢) سورة العنكبوت: ٦١.

(٣) سورة العنكبوت: ٦٣.

(٤) سورة العنكبوت: ٦٣.

(٥) سورة لقمان: ٢٥.

(٦) سورة لقمان: ٢٥.

(٧) سورة الروم: ٤٠.

(٨) سورة الروم: ٤٠.

(٩) سورة إبراهيم: ١٠.

(١٠) سورة الأنعام: ١٦٤.

النصارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَزَقَهُمْ تَفِيفٌ مِّنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾^(١).

وحجة القرآن الدامغة لكل شبهة دائمة غير منقطعة، ودوامها في صدقها وقوتها وحجيتها وشمولها؛ باقية ما بقيت السموات والأرض وما بقيت في الأرض حياة، وهي تتعامل مع كافة الناس على تباين أزمانهم، ومواقفهم، ومراتبهم في الفهم والإدراك، والبقاء والشمول مستمدان من بقاء الرسالة وشمولها، ولا يتصور أن أحداً في أي وقت أو أي موقع - يجروء على معارضة حجة القرآن بما يقطعها، أو يشكك في مصداقيتها، على ما يكون من حجج بعض الناس التي قد تكون قاطعة لبعضهم، وفي وقت من الأوقات، ثم لا تلبث أن يعرف بعض الناس بطلانها أو ضعفها، أما حجة القرآن الكريم فتبقى قاطعة لكل حجة، ولا يُغيّر من تلك الحقيقة الثابتة زمان ولا مكان ولا إنسان.

ولا شك أن تقرير القواعد الاعتقادية، وإقامة الأدلة والبراهين العقلية والرد على الخصوم من غير تناقض أو تعارض من أعظم ما جاء في الحوار القرآني بوضوح معانيه، وقوة دلالاته، ودقة مقاصده ما يجعله هداية للضالين والغافلين، وقطعا للمعاندين والجاحدين، وحجة على الخلق أجمعين، فلا تناقض بين أدلته وبراهينه، بخلاف براهين غيره، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾^(٢)، ولا ضعف في قوة حجة حواره ووضوح حجته، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِنْدُوبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾^(٣)، فلا أحد أحد في قديم الزمن ولا في حديثه يُعرف أنه أقام دليلاً صحيحاً أو برهاناً ساطعاً أو حجة قاطعة يعارض بها أدلة القرآن الكريم وبراهينه وحججه، بل لم يذكروا إلا ما يدل على عجزهم وانقطاعهم، وذلك حين وصفوا القرآن بالسكر والشعر افتراءً

(١) محمد الأمين الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج ٣، ص ٢١.

(٢) سورة النساء: آية ٨٢.

(٣) سورة فصلت: الآيتان ٤١-٤٢.

عليه، وهم أول من يعرف براءته من ذلك؛ كما كان من أمر الوليد بن المغيرة وغيره. بل هؤلاء الذين أخبر القرآن أنهم صالوا النار - كأبي لهب والوليد - لم يجرؤ أحدهم على تكذيب القرآن بإبطال حجته، وإظهار تناقضه - مع حرصهم على معارضته - فيعلن إسلامه، ولو على سبيل المعارضة، فله الحجة البالغة أبداً.

ويأتي إلزام الخصوم وإفحامهم في الحوار القرآني من أقرب الطرق وأقواها إلزاماً وإفحاماً، فلا يجد الخصم لنفسه ملاذاً غير التسليم والإذعان، ومن ذلك ما حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام في مجادلة مدعي الربوبية كما ذكرنا، قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَهِيمَ فِي رِيْبِهِ أَنْ ءَاتَهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبرَهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبرَهِيمُ فَإِنَّكَ اللهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ قَبِهُتِ الَّذِي كَفَرُ اللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ ^(١)، ومنه أيضاً: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ ^(٢).

ومن جمال الحوار القرآني وأمانته أنه يرشد مخاصميه إلى العقل الصريح، والعقل هو أغلى ما يفاخر به المخاصم، والقرآن لا يخاف نتائج العقل؛ لأنها دائماً - إن كانت صحيحة صريحة - لا تتعارض مع الحقائق الإيمانية، بل القرآن يأمر بإعمال الفكر والنظر، واستخدام العقل إلى الغاية الممكنة، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُعْطِيكُمْ بِوَحْدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْقِي وَفُرْدَى ثُمَّ نَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ^(٣).

وهناك قوانين عقلية لا يمكن الاختلاف والتنازع فيها كإلحاق الشيء بنظيره، وإعطاء الفرع حكم أصله ونحو ذلك، ولهذا ذم الله تعالى الذين يجادلون في الله بغير حجة؛ لا من كتاب ناطق، ولا من عقل صادق. فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي

(١) سورة البقرة: آية ٢٥٨.

(٢) سورة الطور: آية ٣٥.

(٣) سورة سبأ: آية ٤٦.

اللَّهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٨﴾^(١).

ونجد آيات حوارية كثيرة في القرآن فيها المطالبة بالتزام ما يقتضيه العقل والإذعان إلى حكمه - وهو موافق لا محالة لحكم الشرع - ومنها قوله تعالى مخاطبا أهل الكتاب في شأن انتسابهم إلى إبراهيم عليه السلام: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَتَأْتُمْ هَتُؤَلَاءَ حُجَجَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾^(٢) وفيه إنكار على أهل الكتاب "لمحاجتهم الباطلة للمسلمين في دين إبراهيم، حيث زعم كل فريق منهم أنهم على دينه توصلا إلى أن الذي خالف دينهم لا يكون على دين إبراهيم كما يدعي النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فالمحاجة فرع عن المخالفة في الدعوى. وهذه المحاجة على طريق قياس المساواة في النفي، أو في محاجتهم النبي في دعواه أنه على دين إبراهيم، محاجة يقصدون منها إبطال مساواة دينه لإبراهيم، بطريقة قياس المساواة في النفي أيضا"^(٣).

وفي طلب من الخليل عليه السلام لاستدعاء عقل من عبد من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره، ومطالبته أن يحكم عقله تهكم عليهم بذلك، قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾^(٤).

"وقد أثنى الله على نبيه إبراهيم بالحجة التي آتاه إياها، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ

(١) سورة الحج: آية ٨.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ٦٥-٦٨.

(٣) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر

- تونس، ١٩٨٤ هـ) ج ٣، ص ٢٧٠.

(٤) سورة الأنبياء: الآيات ٦٦-٦٧.

حُجَّتَنَا ءَاتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَزَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ﴿١﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ ﴿٢﴾، وَأَصْلُ الْمُحَاجَّةِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ جَلَّ وَعَلَا، وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ قَدْ أَفْحَمُوا بِالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ لَمَّا قَالَ لَهُ الْكُفَّارُ عَنْ أَصْنَامِهِمْ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٣﴾، قَالَ: ﴿أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤﴾، فَلَمَّا أَفْحَمَهُمْ بِهِذِهِ الْحُجَّةِ لَجُّوا إِلَى الْقُوَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْهُمْ: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٥﴾ ﴿٦﴾، وَتِلْكَ عَادَةُ الْكُفَّارِ الْمُتَعَصِّبِينَ لِأَصْنَامِهِمْ، كَلَمَّا أَفْحَمُوا بِالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ الْقَاطِعَةَ لَجُّوا إِلَى اسْتِعْمَالِ الْقُوَّةِ، وَلَكِنْ اللَّهُ أَنْجَى إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ، وَكَذَا يَنْجِي مِنَ يَدَافِعُ عَنْهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مَعْنَاهُ "قَبْحًا لَكُمْ وَلِتِلْكَ التَّمَاثِيلِ الَّتِي تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ الْخَالِقِ الرَّازِقِ الضَّارِّ النَّافِعِ، وَقَوْلُهُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَي: قَبْحُ عِبَادَتِهَا وَبَاطِلُ تَأْلِيهِهَا، وَهِيَ جَمَادٌ لَا تَسْمَعُ وَلَا تَنْطِقُ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ" ﴿٧﴾، وَوَاضِحٌ تَوْبِيخُهُمْ بِمَدَاهِمَتِهِمْ بِالتَّعَجُّبِ وَالتَّوْبِيخِ عَلَيْهِمْ رَغْمَ أَنْ لَهُمْ عَقُولًا، وَلَكِنْهُمْ لَا يَعْقِلُونَ بِهَا.

واشتمال الحوار العقدي الاستدلالي القرآني على القوانين العقلية الصريحة يجعله حجة على كل الناس، لاسيما الذين غلبت عليهم النزعات العقلية المجردة

(١) سورة الأنعام: آية ٨٣.

(٢) سورة الأنعام: آية ٨٠.

(٣) سورة الأنبياء: آية ٦٥.

(٤) سورة الأنبياء: آية ٦٧.

(٥) سورة الأنبياء: آية ٦٨.

(٦) محمد الأمين الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، ج ٣، ص ٤٢٨.

(٧) الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، (مكتبة مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، خامسة، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م) ج ٣،

العقيمة، أو الذين لهم معتقدات دينية يتعصبون لها، أو هؤلاء الذين لا ينقلبون عن مذاهبهم المجردة المادية الغربية المستوردة إلا براهين جديدة مستحدثة مزيفة، ونستثني من عائد من هؤلاء، والحوار القرآني مليء بالهدى لكل عاقل أرادته أو بحث عنه إذا تخلى عن التعصب والعناد.

الحوار القرآني يخاطب العقل والعاطفة معا:

من أوجه القوة في الحوار العقدي القرآني أنه يخاطب العقل والعاطفة على حد سواء، فهو يأتي بالفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معا، وقد راعى الحوار القرآني مخاطبة العاطفة مع العقل في الحوار حتى لا تتحجر النزعة الوجدانية في نفوس المشركين، فالإيمان في أصله فطرة يستشعرها الوجدان وتتذوقها العاطفة ويؤكداهما العقل، ومن هنا فالقرآن يلازم بين هذين الجانبين ليسوق الأفتدة إلى حقيقة العقيدة، ويمتلك كل عناصر التحكم في الإنسان قلبا وقالبا، ظاهرا وباطنا ويخضعها لجلاله طوعا أو كرها، وكل هذا الحراك لا ينفك عن سياق الوحي الإلهي، وعلى أساسه انطلق حوار السلف الصالح، لأنهم فطنوا إلى أن من خصائص المنهج الإلهي في الحوار توازنه، فهو منهج "مشبع للعقل والقلب، كافل للعقل والآخرة، يلبي حاجات الروح والجسد العاجلة والآجلة"^(١).

ويعجز العقل البشري عن مواءمة أو اختلاق مثل ذلك الحوار، فلا يستطيع أي إنسان "عالمًا كان أو حكيما أو شاعرا أو أدبيا، أن يمسك بالأمر من طرفيه، فيأتي بكلام واحد فيه قوة الحججة العقلية وجمال العبارة، ولو وجدا عنده فلا يعملان إلا مناوبة، كلما قويت واحدة اضمحلت الأخرى، وكاد أن ينمحي أثرها، وكلنا يحس من نفسه تناقض قوة الوجدان عند استيلاء قوة التفكير، والعكس بالعكس"^(٢).

(١) محمد الغزالي، الجانب العاطفي من الإسلام، ط. نهضة مصر، ط. أولى، سنة ٢٠٠٥ م) ص ٣.
(٢) محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، ط. السعادة، مصر، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م) ص ١٠٧-١١٠، والزرقاتي، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان، (ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ت) ج ٢، ص ٢٠٩-٢١١، وفهد بن عبد الرحمن الرومي، خصائص القرآن الكريم (ط. مكتبة الحرمين، السعودية، ط. ثانية، ١٤٠٩ هـ) ص ٣٥-٣٨.

والعقل البشري شاهد على جامعة الحوار العقدي في القرآن للتفكير والعاطفة، والناظر في كلام الناس فلاسفتهم وحكمائهم، وأدبائهم وشعرائهم ومفكريهم؛ لم يجد إلا قصورا في أحد الجانبين؛ فالحكماء - مثلا - يقدمون نتاج عقولهم، وزبدة تفكيرهم غذاء للعقل، ويتجاهلون الوجدان فكلامهم ضامر عن إشباع العاطفة وإرواء الموجد.

وإذا نظرنا إلى الشعراء نجدهم يقصدون إلى استثارة الوجدان وإيقاد مجامر العاطفة، ولا يبالون بما يصورونه غيا كان أم رشدا، حقيقة أم خيالا، وعندما يكونون جادين نحسبهم هازلين؛ ونراهم يَطْرُبُونَ وإن كانوا لا يَطْرِبُونَ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٣٣٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٣٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٣٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣٣٧﴾ ﴾^(١).

فالشعر بين حالين؛ حال يعبر تعبيراً صادقا عن مشاعر النفس الوجدانية أو التخيلية لدى مُشَاهِدَةٍ طبيعية أو حادثة إنسانية بالكلام الطيب الذي يُرضي الآمال والمطامع النفسية، بإقناعات صادقات، أو بإقناعات توهم بأنها صادقات، فتستر بها عورات التلفيق والكذب، وأحيانا يكون شعرا تنكشف فيه عورات التلفيق والكذب وحينها تمجُّه النفوس، ولو سبق لإرضاء الآمال والمطامع النفسية، لكان مقبولا، بخلاف حوار القرآن، فهو عديم المخادعة؛ يرضي العقل والوجدان دون مجازاة أو مداهنة.

وعموماً لا نكاد نجد بشرا وفى بحق العقل إلا وبخس حق الوجدان، أو وفى بحق الوجدان إلا وبخس حق العقل، أما القرآن الكريم فهو جامع بين القوتين: قوة الحجة العقلية البرهانية حتى إنه ليُقنع، وقوة المتعة الوجدانية والعاطفية حتى إنه ليُرضي ويشبع فحول الأدباء والشعراء، فهو كلام الله عز شأنه، لا يشغله شأن عن شأن، فهو القادر على مخاطبة العقل والقلب معا وبلسان واحد، وأن يمزج بين

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢٢٤-٢٢٧.

الحق والجمال، انظر - مثلاً - إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(١)، وتأمل وتدبر كيف اجتمع في سبع كلمات عمق المقدمات اليقينية، ووضوحها، ودقة تصوير ما يعقب التنازع من الفساد الرهيب؛ مما لو ابتغى أن يأتي بمثله فلاسفة العصور كلها لما استطاعوا إلا بعبارة طويلة وعرة جافة.

* * *

(١) سورة الأنبياء: آية ٢٢.

المبحث الثاني

أدب محاورة غير المسلمين في القرآن

المقصود بأدب الحوار هو مجموعة الآداب والأخلاق الحسنة التي يجب على المتحاورين اتباعها والسير على درجها بغية تحقيق الأهداف المنشودة من الحوار، وهي المزيد من التفاهم والإسهام في حل المشكلات، مع الإبقاء على العلاقات الإنسانية القائمة في حالة حسنة دون تغيير إلى الأسوأ نتيجة اختلاف الآراء، وقد عرض القرآن لحوار الرسل والأنبياء وبين ملامحه التي يكسوها اللين والصبر والتحمل، وعرض لطريقتهم في التخاطب، بطريقة تجمع بين "عمق المعنى ودقة التصوير، ووضوح التعبير، وسلامة التركيب دون إخلال بالصورة البيانية التي تثير الضمير وتوقظ المدارك النفسية، وتدفع بالعقول إلى النظر دون ارتباط بالاصطلاحات المنطقية الفلسفية المعقدة"^(١)، وقد تضمن حوار النبي ﷺ دعوة ذات أصول وفروع، أصولها الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره... وفروعها القيام بأوامر الشريعة من عبادات مفروضة وآداب معلومة.

وفيما يلي بيان لأبرز آداب الحوار العقدي في القرآن تحت مفهوم التسامح والتلطف واللين:

أولاً: المصابرة والحلم والحرص على البلاغ:

حكى القرآن حوار الأنبياء والرسل مع قومهم حين دعوهم إلى عبادة الله وحده، فهذا نوح -عليه السلام- يحاور قومه وليس له بغية ولا طلبه إلا إثبات توحيد الله ونزع الشرك من قلوبهم، ولم ير نفسه في ظل حرصه على البلاغ رغم أنهم اتهموه بالضلال، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّي غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥١﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ

(١) زاهر بن عواض الألمعي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، ص ٤١٦-٤١٧.

مُيِّنِ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَنْقَوْمٍ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴿١﴾، فعماد حوار نوح مع قومه ومصابرتة فيه وحسن منطقته؛ يعمد إلى إثبات حقيقة واحدة وهي عبادة الله وحده، وهو صريح في قوله "اعبدوا الله مالكم من إله غيره" أي "أدعوكم إلى التوحيد" (٢).

وها هو هود -عليه السلام- ينازعه قومه ويصبر على أذى محاورتهم ويتحمل جنوح ألسنتهم، ويحاورهم بالحسنى ليصل إلى طلبة رسالته وبغية مهمته، قال تعالى: ﴿وَالِإِلَهِ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقَوْمٍ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَنْقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقَوْمٍ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْحَيْتُ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَاكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (٣).

إنه حاورهم بالحسنى وصولاً بهم إلى نبذ الشرك وهجرانه، فاتهموه بالسفاهة، وهي "الحمق والطيش وعدم البصيرة بالحياة حين خرج عن إجماع قومه، وواجههم بعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم، واتهموه بالكذب حين قالوا: ﴿وَأِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ فيما جئت به من الرسالة، ودعوت إليه من التوحيد ونبذ الآلهة، فأجاب هود عليه السلام راداً لشبهتهم فقال:

﴿يَنْقَوْمٍ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٧﴾ فلست كما تزعمون أن بي سفاهة ولكني أحمل رسالة أبلغكموها، وأنا في ذلك ناصح لكم مرید لكم الخير أمين على وحي الله تعالى إلي، أمين لا أغشكم ولا أخونكم فما أريد لكم إلا

(١) سورة الأعراف: الآيتان ٥٩-٦٢.

(٢) أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، بحر العلوم، بتحقيق: د. محمود مطرجي، (ط. دار الفكر - بيروت - د.ت)، ج ١، ص ٥٤٠.

(٣) سورة الأعراف: ٦٥-٦٩.

الخير"^(١).

وفي ذلك إشارة صريحة إلى إثبات حقيقة واضحة، وهي أن طبيعة الدعوة إلى توحيد الله تعالى تقتضي الخروج إلى الناس ومحاورتهم أو مجادلتهم - والجدال درجة أشد من الحوار - بالحسنى؛ ذلك لأن الداعي لا يتوقع أن يذعن أكثر الناس إلى وعظه لمجرد كونه داعياً حتى لو كان نبياً مرسلًا وما سبق من موقف نوح وهود مع قومهما من حسن الحوار والجدال، وتكذيب قومهما لهما وتسفيهما وكيف أن ذلك لم يخرجهما عن أدب الحوار والمصابرة عليه شاهد على ذلك، وكذا أمر صالح في قومه حين حاورهم على التوحيد قال تعالى:

﴿وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وقال في نفس الأمر عن شعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وهذه الدعوة إلى التوحيد تؤكد للمحاور الداعية "ضرورة تحديد أولويات التفاوض، وهنا علينا تحديد أهمية كل نقطة ووزنها، ومن ثم تحديد أولويات التحدث بشأنها، وتصديرها على قائمة موضوعات النقاش أو تهميشها أو السكوت عنها، وهل نبدأ بالمشكلات الرئيسية أو الفرعية"^(٢).

ونلاحظ في منهج الأنبياء في الحوار حسب بيانه في القرآن كما سلف تجنب الغضب، لأنه من أخطر آفات الحوار، فهو يخرج الإنسان عن حدود السلوك القويم، وتلك حقيقة فـ"إن الحوار لا يكاد يبدأ جدالاً بالتي هي أحسن... حتى تتسلل إليه الحدة والشدة وتستولي على بعض أطرافه روح الضيق بالمخالفين والمسارة إلى اتهامهم في أفكارهم ونياتهم، وأخذهم بالشبهة وسوء الظن،

(١) جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، (مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط. خامسة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م) ج ٢، ص ١٨٩ بتصرف يسير.

(٢) حسن محمد وجيه: مقدمة في علم التفاوض السياسي والاجتماعي، سلسلة عالم المعرفة (١٩٠) الكويت، ربيع الآخر ١٤١٥هـ - أكتوبر ١٩٩٤م) ص ٢٨.

واستثارتهم باللفظ الجارح والعبارة القاسية، ويترك بعضهم ساحة الحوار إيثاراً للسلامة ويختار بعضهم أن يدفع السيئة فيرد على الصيحة بأعلى منها، يتلقى التهمة فيوجه مثلها أو أشد... ثم لا تلبث القضايا التي بدأ الحوار بقصد خدمتها أن تضيع وسط الاتهامات المتبادلة"^(١).

وقد سجلت كتب السيرة والسنة على نسق ما سجله القرآن كثيراً من حوار النبي ﷺ مع أهل الشرك بالقول اللين الحسن والرغبة الصادقة في نفع الناس في دينهم وديناهم، ولا أدل على ذلك من كثرة الأحاديث الحوارية في سيرة النبي ﷺ وسنته الشريفة، وهذا العدد الكبير من الحوارات يُظهر بجلاء أن الحوار كان الوسيلة الأولى المفضلة لدى النبي ﷺ وصحابته في الدعوة إلى الله تعالى وإثبات توحيده ونبذ الشرك، فالحوار في السنة هو المنهج الذي اتبعته الدعوة إلى الله تعالى بالحسن بكل تفصيلاتها ومراحلها.

وعلاقات المسلمين بغيرهم في مكة في مستهل دعوة التوحيد قامت كلها على الحوار، و"بفضل الحوار كان يقيم النبي ﷺ الحجج والبرهان على المشركين وأهل الكتاب وغيرهم"^(٢).

وقد أتى الحوار العقدي منذ بزوغ شمس الدعوة أكله الطيب، فأسلم مَنْ أسلم بهذه الطريقة الحوارية اليسيرة المحببة إلى الناس، ولم يثبت قط أن أحداً من الناس أُجبر على ترك شركه أو ديانته أياً كانت والدخول في الإسلام، كيف والقرآن نفسه يبين ذلك بجلاء في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾^(٣)، وقد مثل حوار النبي ﷺ مع أهل المدينة لهذه الآية على سبيل المثال حين خرج ﷺ في الموسم ليعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند

(١) أحمد كمال أبو المجد، حوار لا مواجهة، (ط.، دار الشروق، القاهرة ١٩٨٨ م) ص ٢٤.

(٢) محسن الناظر، حوار الرسول ﷺ مع اليهود: (ط. دار الدعوة، الكويت، ط. أولى، سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م) ص ٥.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٦.

العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً.. قال ابن إسحاق: "لما لقيهم رسول الله ﷺ قال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمين موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، قال: وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن قد أظلم زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ودعاهم إلى الله قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشرا ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك، ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا"^(١).

إن الحوار العقدي النبوي يسير مع منهج القرآن في درب واحد، لأن كليهما يخرج من مشكاة واحدة وهي وحي الله تعالى، والقرآن كَوّن الصفات المثالية أثناء ممارسة الحوار في الدعوة جميعاً التي تستجيب لها الفطرة وتتناغم معها، والقوة بعد ذلك تتولاها الفطرة بعد اقتناعها وارتياحها لما جاء به الحوار، وقوة الفطرة لا تشاهد بالعين، ولا ترى بالمجهر، ولا يعرفها التشريح أو الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء)، إنها قوة معنوية يحسها الإنسان في حناياه تهديه إلى الواجب، وتدله على الحق، وتدفعه إلى سلوكه على الرغم مما قد يكون فيه من مشاق وعقبات، وتبين له طريق الشر، وتدفعه إلى تجنبه على الرغم مما قد يكون في سلوك ذلك الطريق من

(١) ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، تحقيق: سهيل زكار، (ط. دار الفكر، بيروت، ط. أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م) ج ١، ص ٢٨٩ - ٢٩٠.

منفعة تخصه ولذة عاجلة، وحين يتبع المرء هذه القوة يحصل على راحة النفس وطمأنينة البال، وحين يخالفها يقع تحت طائلة الشقاء والتعاسة والقلق والعذاب. ورسالة الداعية تستدعي أن يمتزج حوارها بالحنو والحنان حتى تصل إلى العقل بأنأة، وتخالط القلب وتستقر فيه، ف"إن الإسلام في تكوينه للعقيدة يخاطب القلب والعقل، ويستثير العاطفة والفكر، ويوقظ الانفعالات النفسية مع إيقاظه للقوى الذهنية"^(١)، وما الحواس البشرية الظاهرة إلا سبل تنتقل من خلالها وقائع العالم الخارجي إلى النفس الإنسانية المدركة (عقلاً وقلباً)؛ ليصدر الحكم عليها من خلال الدستور الكامن فيها، ذلك الدستور الذي عنيت الدعوة الإسلامية بتسطير مواده في ازدواجية تجمع بين قناعة العقل وعاطفة القلب.

ثانياً: التواضع في لهجة الحوار وعدم التكبر والتعالي:

إن من أدب الحوار من خلال استقراء آي الله في القرآن: التواضع للمحاور، وعدم التعالي عليه أو استحقاره، فالحوار يقتضي "التواضع الذي يستصغر به الإنسان نفسه وجهده، بحيث لا يقف من خصمه موقف التحدي ولكن موقف المسترشد المتعرض بنفسه لمساقط الغيث، وعلى جسر هذا التواضع الذي يفتح الطريق أمام الرأي الآخر تنجلي معركة الرأي عن فوائد كثيرة"^(٢) وهذا من هدي القرآن الذي نزل لهداية الناس كافة، وما فيه من الحوار والجدل إنما هو لمخاطبة الناس جميعاً، وعلى مختلف مستوياتهم العقلية والعاطفية بلا استعلاء، ما يشعر المحاور بأن الذي يدعوه يهدف أولاً إلى مصلحته ويبغي له الخير، كما قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾^(٣)، بل إن القرآن بين أن التكبر أمر مذموم وهو مرض إبليس الذي أخرجه إلى الكفر، والناس لا يقبلون حواراً من متكبر أياً

(١) محمد الغزالي، عقيدة المسلم، (ط. دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط. رابعة) ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م) ص٦.

(٢) محمود محمد عمار، من أجل حوار لا يفسد للود قضية، (ط. مكتبة الإيمان، المنصورة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م) ص٨٦..

(٣) سورة هود: ٨٨.

كان موقعه أو منصبه أو مكانته، فإن قبلوا منه لمكانة له أو سلطان فعلى مضمض وكره وتربص إلى حين.. ولهذا أوصى لقمان ولده بقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (١٨) (١).

ولا ينبغي أن يبدأ الحوار بتخطئة الآخر، واتهامه عنفوانا، ومظنة العصمة، وإلا فلماذا الحوار إذا؟ إن الحوار سبيل لبيان الحق، إذا شابه الكبر والإدانة والالتهام فلن يظهر الحق، وسوف يصر الطرف الآخر على موقفه، ومن ثم تضيع الحقيقة، وهذا ثابت في كثير مما أوردناه من حوارات النبي ﷺ، فلم يثبت قط في حوار للنبي ﷺ أنه سب محاوره أو لعنه أو قبّح أو تنقص... حتى في أشد الأزمات وأحلك الأوقات، ولا يتحقق إصلاح المعتقدات السائبة وضبط مسيرها إلا على أساس الاضطراب، على الحوار بعيدا عن تعجل نتائجه، وذلك يشل حركة الحوار، ويسيء للإسلام، ويوقعه تحت الضربات الموجعة من أعدائه، وإن بشاشة الوجه، ولين الجانب، وخفض الجناح، وإلقاء التحية؛ أمور كالسحر في اجتذاب القلوب والنفوس، وكذا لقاء المحاور بوجه طلق وبإلقاء السلام، كل ذلك يفتح مغاليق القلوب ويقارب بين الأرواح، لهذا السبب ورددم المجادل المتكبر عن الحق ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَجْعَلُ فِي اللَّهِ بَغِيرَ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (٨) ثانياً عطفه، ليضلل عن سبيل الله له، في الدنيا خزيً ونديقه، يوم القيامة عذاب الحريق (١) (٢).

والإصلاح العقدي يمكن الوصول إليه بتحرير محل النزاع مع المخالف بأدب وتواضع وأناة، ولذلك الأدب قيمة عظيمة في عدم تشعب الخلاف إلى ما لا خلاف فيه، وذلك بالاعتناء بالمضمون المتنازع فيه وتقريب شقة الخلاف، بحيث يسقط منها الخلاف اللفظي الذي يضحمه الكبر والعجب بالرأي والدخول في مبارزات كلامية، فمع التواضع تنبع روح التسامح في الحوار تختفي عندها حدة الخلاف بالنتائج، فللحوار روح ومعنى وقيمة في القرآن، فلم يكن أبدا ضامرا ولا صلبا ولا

(١) سورة لقمان: ١٨.

(٢) سورة الحج: ٨-٩.

جافا كما في "طريقة المناطقة في الجدل والاستدلال التي لا يفهمها إلا طائفة خاصة من الناس؛ وذلك لما فيها من الغموض، والإلغاز في الاستدلال، والتطويل في العبارات، فطريقة القرآن في الحوار بعيدة عن طريقة المناطقة والفلاسفة الاصطلاحية في المقدمات والنتائج من الاستدلال بالكلية على الجزئي في قياس الشمول^(١)، أو الاستدلال بأحد الجزئين على الآخر في قياس التمثيل، أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء^(٢)^(٣)، فقد تفرد القرآن بمنهج حوار لا يضاهيه منهج ولا يبلغه حوار.

ثالثاً: الالتفات للمحاور والإنصات إليه:

إن حسن الاستماع والإنصات للمحاور والالتفات من أهم الآداب المؤثرة في الحوار العقدي، ولقد ضرب سيد الدعاة ﷺ في ذلك أروع المثل حين حاور أهل مكة وأنساقهم.

وما أحوج الحوار المعاصر إلى هذا الأدب عند محاوره أهل الزيغ، وما أحوجنا إلى فهم أننا نخاطبهم بأدب عقيدتنا وأخلاق ديننا وأنهم إن خرجوا عن الأدب فلاهم يحاورنا بأخلاق دينهم وعقائدهم التي تركت فيهم موروثاً ضخماً من العداوة، ولا يزال ذلك الموروث مؤثراً فاعلاً، إنه يعيش في اللاوعي الجمعي لأهل الكفر، ويستدعى على الفور إلى منطقة الوعي مع أول احتكاك فردي أو

(١) المراد بقياس الشمول: اشتراك الأفراد في حكم عام وشموله لها. انظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد

الحليم أبو العباس: الرد على المنطقيين (ط. دار المعرفة، بيروت - لبنان، د.ت)، ص ٣٦٤.

(٢) المقصود بقياس التمثيل: إثبات حكم في أمر لثبوتيه في آخر لعلته مشتركة بينهما، ويسمى المحكوم عليه فرعاً، والشيء المنقول منه الحكم أصلاً، أو مثلاً، والعللة المشتركة بينهما جامعة. وهو قياس الأصوليين، ويسمى الشرعي. والمراد بالاستقراء: هو الحكم على الكلي لثبوت ذلك الحكم في جزئياته أو أفرادها، إما كلها وهو الاستقراء التام، وإما أكثرها وهو الاستقراء المشهور، معتمداً على مبدأ الحتمية، كقولنا: لكل طائر جناحان. انظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، (ط. دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط. أولى، د.ت) ج ١، ص ٧١-٧٢.

(٣) محمود شيخون، من أسرار البلاغة، (ط. مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤٠٤ هـ)، ص ٢٢٣.

جماعي، ففي الولايات المتحدة على سبيل المثال "من الأسهل على الأمريكي الأبيض أن يصحح علاقته مع الأمريكي الزنجي أو المكسيكي من أن يعيد النظر في علاقته مع العربي المسلم، لقد جرى تعديل النظرة إلى الصيني وإلى الأفريقي، أما العربي المسلم فما يزال عرضة لنظرة دونية تبعاً لموروث تاريخي يضرب في الأعماق إلى أيام روما على الأقل، مروراً بالفتح العربي والحروب الصليبية وفتوح بني عثمان وعصر الاستعمار"^(١).

وقد عاتب الله خليله ﷺ في عبد الله ابن أم مكتوم لالتفاته عن محاورته وعدم إنصاته إليه، وأنزل فيه قرآناً، قال تعالى معاتباً نبيه ﴿عَسَىٰ وَتُوَىٰ﴾^(٢) قال ابن العربي في أحكام القرآن "قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ وَتُوَىٰ﴾ فِيهَا مَسْأَلَتَانِ: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى لَا خِلَافَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى، قَالَ مَالِكٌ: إِنَّ هِشَامَ بْنَ عُرْوَةَ حَدَّثَهُ عَنْ عُرْوَةَ أَنَّهُ قَالَ: نَزَلَتْ ﴿عَسَىٰ وَتُوَىٰ﴾ فِي ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَجَعَلَ يَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ؛ عَلَّمَنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، وَعِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ مِنْ عِظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْرِضُ عَنْهُ وَيُقْبِلُ عَلَى الْآخِرِ، وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، هَلْ تَرَى بِمَا أَقُولُ بِأَسَا، فَيَقُولُ: لَا، مَا أَرَى بِمَا تَقُولُ بِأَسَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿عَسَىٰ وَتُوَىٰ﴾، قَالَتِ الْمَالِكِيَّةُ مِنْ عُلَمَائِنَا: اسْمُ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ عَمْرُو، وَيُقَالُ عَبْدُ اللَّهِ، وَالرَّجُلُ مِنْ عِظَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَّةُ هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾، وَمَعْنَاهُ نَحْوُهُ حَيْثُمَا وَقَعَ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ إِنَّمَا قَصَدَ تَأْلُفَ الرَّجُلِ الطَّارِئِ ثِقَةً بِمَا كَانَ فِي قَلْبِ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ مِنَ الْإِيمَانِ"^(٣).

وقال الواحدي عن آية عيسى: "هو ابن أم مكتوم، وذلك أنه أتى النبي ﷺ وهو

(١) محي الدين صبحي: المسلمون والبرابرة ومعارك الحضارات، مقال بمجلة الاجتهاد السنة (١٣) (١٣) بيروت ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م. عدد ٥٢، ص ٢٩٣.

(٢) سورة عيسى: آية: ١.

(٣) ابن العربي؛ محمد بن عبد الله الأندلسي، أحكام القرآن، (ط. دار الكتب العلمية، د.ت) ج ٨، ص ٣٠.

يناجي عتبة بن ربيعة وأبا جهل بن هشام وعباس بن عبد المطلب وأبياً وأمياً ابني خلف، ويدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم، فقام ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله، علمني مما علمك الله، وجعل يناديه ويكرر النداء ولا يدرى أنه مشغول مقبل على غيره، حتى ظهرت الكراهية في وجه رسول الله ﷺ لقطعته كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء الصناديد إنما أتباعه العميان والسفلة والعبيد، فعبس رسول الله ﷺ وأعرض عنه وأقبل على القوم الذين يكلمهم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يكرمه، وإذا رآه يقول: مرحبا بمن عاتبني فيه ربي، مع أن إعراض النبي عنه كان لاطمئنان قلبه على سلامة قلب ابن أم مكتوم^(١)، فاهتم بمن يحتاج إلى محاوراة ليثبت الحق لديه.

ونرى إنصات النبي ﷺ لعتبة بن ربيعة واستماعه منه باهتمام ودون مقاطعة حتى فرغ فقال النبي ﷺ: أقدم فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل^(٢)، وحسن الاستماع من النبي ﷺ للرجل جعله يجلس ويستمع كذلك، وإن لم يهتد، فتلك قضية أخرى.

"إن المحاور الجيد هو الذي ينتظر، ويتأكد مما يسمعه، ويستوضح أي غموض حتى يتأكد قبل إصدار الحكم"^(٣).

وكثيراً ما نرى ونسمع محاورات في التلفاز والمذياع فنجد هذا الأدب مفتقداً في كثير منها، إذ يتحدث أحد المتحاورين فلا يصبر عليه الآخر فيقاطعه قبل تمام حديثه، وربما دعاه إلى ذلك أن الأول أراد أن يستأثر لنفسه بالحديث فأطال، وهي آفة أخرى من آفات التحاور، وهنا تسمع صوتين يتحدثان معاً ومن ثم يتدخل

(١) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، أسباب النزول (ط. مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، د.ت) ج ١، ص ٢٩٧.

(٢) ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، تحقيق: سهيل زكار، (ط. دار الفكر، بيروت، ط. أولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م) ج ١، ص ١٩٣.

(٣) حسن محمد وجيه، مقدمة في علم التفاوض السياسي والاجتماعي، ص ٢٦.

المذيع أو مدير الحوار.. وتكون صورة مؤسفة تضيع معها بعض معالم القضية موضوع الحوار، وهو مخالف للأدب القرآني النبوي في الحوار فعن أبي أيوب أَنَّ أَعْرَابِيًّا عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ فِي سَفَرٍ فَأَخَذَ بِخِطَامِ نَاقَتِهِ أَوْ بِرِمَامِهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْ يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي بِمَا يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَمَا يُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ، قَالَ: فَكَفَّ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ نَظَرَ فِي أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ: لَقَدْ وَفَّقَ أَوْ لَقَدْ هُدِيَ، قَالَ: كَيْفَ قُلْتَ؟ قَالَ: فَأَعَادَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ وَتَصِلُ الرَّحِمَ، دَعِ النَّاقَةَ^(١) إِنْ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ يَسْتَوِي عِنْدَهُ النَّاسُ فَلَا يَسْتَمِعُ لِعَنِي وَيَعْرُضُ عَنِ فَقِيرٍ، وَلَمْ يَكُنْ تَعَامَلُهُ عَلَيُّ أَسَسَ مَادِيَةً أَوْ تَفَاوُتَ مَجْتَمِعِي، فَكَمَا جَالَسَ الْمَلُوكَ وَالْأُمَرَاءَ وَدَعَاهُمْ وَوَعظَهُمْ، جَالَسَ عَامَةَ النَّاسِ رِجَالًا وَنِسَاءً وَحَاوَرَهُمْ وَدَعَاهُمْ بِالْحَسَنِ، وَهَذِهِ وَقَعَةُ مِنْ وَقَائِعِ كَثِيرَةٍ تَدُلُّ عَلَيَّ ذَلِكَ، فَالنبِيُّ ﷺ كَانَ فِي سَفَرٍ، وَالْمَسَافِرُ يَشْغَلُهُ سَفَرُهُ عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَشْغَلُهُ سَفَرُهُ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ، وَلِذَا مَدَحَ الْأَعْرَابِيُّ الَّذِي سَأَلَهُ ذَلِكَ السُّؤَالَ الْجَامِعَ وَهُوَ عَلَيُّ نَاقَتَهُ بِقَوْلِهِ:

"لَقَدْ وَفَّقَ أَوْ لَقَدْ هُدِيَ" بل زاد على ذلك أن استعاد السؤال ثانية ليسمع أصحابه ويتعلم الناس، ثم وعظه بجوامع الخير من العبادة وصلة الرحم.

والحوار مع غير المسلم جائز لعله تحقيق مصلحة المسلمين وحقن الدماء وحفظ الأموال، بل إن المشركين والظالمين وأهل الأهواء إذا عظموا أمر الله تعالى في شيء وجب إعاتتهم فيما ظاهره الخير لعلهم يهتدون إلى الحق، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله من فوائد صلح الحديدية: "أن المشركين وأهل البدع والفجور والبغاة والظلمة إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمت الله تعالى أجيبوا إليه وأعطوه وأعينوا عليه وإن منعوا غيره، فيعاونون على ما فيه تعظيم حرمت الله تعالى لا على

(١) أخرجه مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة، وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة (ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، د. ت) ج ١، ص ٤٢.

كفرهم وبغيهم، ويمنعون مما سوى ذلك.. وهذا من أدق المواضع وأصعبها وأشقها على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق^(١).

رابعاً: التلطف واللين والحلم وحسن إدارة الحوار:

إن التلطف والحلم من أهم آداب الحوار العقدي في القرآن، والتي سلك طريقها الأنبياء والمرسلون في حوارهم، فمثلاً "أمر الله جل وعلا نبيه موسى وهارون عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام: أن يقولوا لفرعون في حال تبليغ رسالة الله إليه فقال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا نُعَلِّهَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٢)، أي: كلاماً لطيفاً سهلاً رقيقاً، ليس فيه ما يغضب وينفر، والقول اللين في هذه الآية بقوله:

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾^(٣) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرَى ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَخَشِيَ ﴿١٩﴾^(٤)

وهذا والله غاية لين الكلام ولطافته، ورقته، كما ترى، وما أمر به موسى وهارون في هذه الآية الكريمة أشار له تعالى في غير هذا الموضع، في مثل قوله: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَهُم بِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٥).

ويؤخذ منه أن من أدب الحوار في الدعوة إلى الله الرفق والحكمة والتلطف واللين، وتجنب القسوة والشدة والعنف، فالحوار قرين الحكمة والموعظة الحسنة في جميع الأحوال، وارتباط الحوار بالأدب هو من قبيل ارتباط المنهج والمضمون بالوسيلة والأسلوب؛ فالحوار هو الوسيلة والأسلوب، والحكمة والتلطف هما المنهج، بينما المضمون هو الموعظة الحسنة، وليست أية موعظة، على أي نحو من

(١) ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، زاد المعاد في هدي خير العباد، (ط. مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م) ج ٣، ص ٢٦٧.

(٢) سورة طه: آية ٤٤.

(٣) سورة النازعات: ١٧-١٩.

(٤) سورة النحل: آية ١٢٥.

(٥) محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (ط. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان - سنة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م) ج ٤، ص ١٥.

الأُنحاء، ولا بأية طريقة من الطرق، ولكنها موعظةٌ حسنة، وينطبق هذا على الحوار انطباقاً كاملاً، فالمحاورة "بالطريقة التي هي أحسن؛ أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين، من غير فظاظة ولا تعنيف"^(١)، وذلك أمر من الله تعالى لرسوله "بأن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف، وهو أن يسمع المدعو حكمة، وهو الكلام الصواب القريب الواقع من النفس أجمل موقع"^(٢).

وهذا التلطف أصبح ضرورة لا تقبل النقاش في تلك الآونة بالذات رغم هياج مطاعن الغرب تجاه الإسلام ونييه، فلا شك أن مثل أزمة الرسوم والكتابات الساخرة من النبي محمد ﷺ المستعرة هذه الأيام في أوروبا وأنساقها من صور التفنن في الطعن في عقيدتنا أثر من آثار عداء دفين مستتر في اللاوعي الجمعي لشعوب أوروبا، وها هو يُستثار مرة بعد أخرى فيخرج مكنونه في صور شتى من العداء للإسلام ورسوله والمسلمين، وهو ما نهينا إليه القرآن دائماً حين عالج علاقتنا بأهل الكتاب ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(٣)، وعلى الرغم من مساوىء الغرب وعبثه عبر انتهاكاته الصارخة يوماً تلو يوم، فلا شك أننا في حاجة ماسة إلى مراجعة طريقة حوارنا وضبطها على نسق حوار القرآن، ولا شك أن الحوار مع الآخر - غير المسلم - لا يزال متخلفاً في ثقافتنا المعاصرة كما هو شأن كثير من أمورنا نحن المسلمين، إنه لم يصبح بعدُ منهجاً محدداً أو عملاً مؤسسياً يقوم عليه متخصصون دارسون وملمّون بمسائل الحوار وآدابه وضوابطه وبثقافة الآخر وعلومه وأخلاقه وآدابه.. إلخ، فهو يحتاج لذلك لدرء الهجمة الشريرة الشرسة على الإسلام والمسلمين، ولاستكمال شروط الدعوة إلى الله تعالى التي هي هدف

(١) أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، بتحقيق: عبد الرزاق المهدي (ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ت) ج ٢، ص ٦٠.

(٢) محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت، ط. أولى - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م) ج ٥، ص ٥٣٠.

(٣) سورة البقرة: ١٢٠.

أساس من أهداف المسلمين مع غيرهم دائماً، فهل يمكن معالجة ذلك كله إلا بفتح قنوات الحوار مع الآخر على نفس الميزان القرآني في الحوار دون إفراط في تهاون ولا تعسف؟! نأمل في ذلك فالخير في أمة رسول الله ﷺ باق ما بقيت في الأرض الحياة.

ومثل هذه المواقف تستدعي المجادلة، وهي مقارعة الحججة بالحجة، وتأتي في المرتبة الثانية من مراتب الدعوة إلى الله، وكما أن الدعوة لا تتم على الوجه الشرعي، إلا إذا كانت صادرة عن الحكمة، ومقترنة بها، كذلك الحوار لا يكون إلا بالتي هي أحسن، أي أحسن الوسائل وأقوم الأساليب، وأصح الطرق، وذلك ضمن مبادئ الحوار، وآدابه، وبذلك يتضح جلياً مدى تأكيد القرآن على منهج وأسلوب اللين والحكمة في الحوار.

وكان سيد الدعاة ﷺ يعلم أدب الحوار لسفراء الإسلام من الدعاة، وترك فيهم منهجاً تربوياً ثرياً كونهم على أسمى ألوان الحسن والحكمة في الحوار الدعوي، ويتجلى ذلك حين بعث النبي ﷺ إلى أهل اليمن، ووجهه إلى الحكمة في حوارهم، ودعوته إياهم إلى توحيد الله وعبادته، والصبر على آثاره ونتائجه حتى يؤتي ثماره بقناعة وتمكين، قال النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: "إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله - عز وجل - فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموالهم"^(١).

والحوار الإسلامي يحمل في عباراته أصول العقيدة التي يدعو إليها ويدافع عنها، ولقد ضرب النبي محمد ﷺ أحسن الأمثلة في حوارهم مع الناس في زمانه، إذ آتاه

(١) رواه مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري) في صحيحه (الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم)، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (ط. دار الجيل بيروت، د.ت) ج ١، ص ٣٨.

الله جوامع الكلم، وأعطاه القدرة على الحوار والجدال بالحسنى والإقناع - إن وجد أرضاً خصبةً - من أقصر طريق، حيث الدعوة إلى توحيد الله وتنزيهه في صفاته وأسمائه وأفعاله.

ولا أدل على حسن حوار النبي في أصول الاعتقاد وفروع الشريعة من حوار مع المجتمع المكي حين حاور كبار رجال مكة وأشرفها، وكان من أولهم عمه أبو طالب الذي نازعته قريش نزاعاً طويلاً في أمر ابن أخيه، حيث قال أبو طالب لرسول الله ﷺ: "يا ابن أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟ قال: أي عم، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم - أو كما قال ﷺ - بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه أو كما قال، فقال أبو طالب: أي ابن أخي، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت" (١).

ثم إن اتباع الحسنى في القول والفعل كاف في جذب القلوب والعقول الواعية إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده وتنزيهه، ولهذا أمر المسلمون بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (٢) قال ابن كثير: "قال قتادة وغير واحد: هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولم يبق معهم مجادلة، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف، وقال آخرون: بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين فيجادل ليكون أنجع فيه" (٣).

إننا بحاجة ماسة إلى تغيير لغة الحوار العقدي في عصرنا والعود إلى لغة الحوار القرآني الهادف، وذلك يستدعي أن نضع في تقديرنا عدة أمور من أهمها وأبرزها:

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ج١، ص١٦٨.

(٢) سورة العنكبوت: آية ٤٦.

(٣) ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (ط مؤسسة الريان، لبنان د.ت) ج٣، ص٥٤٧.

أولاً: اعتماد لغة الحوار القرآني وأسلوبه ومنهجيته في تأسيس الإيمان وفي مخاطبة العقل والوجدان على حد سواء باللين والحلم والأناة وبعيدا عن الإفحام واستعراض عضلات الإفحام والإلجام بعدم الإنصات والحرص على الانتصار في نهاية المعركة الجدلية بعد تحولها بتلك النعوت من الهدوء إلى عاصفة ترابية تحجب الرؤية.

ثانياً: تناول بعض قضايا العقيدة بمنهج القرآن لضمانة تحقيق مقاصده، بعيداً عن قضايا الجدل العقيم التي شغلت حيزاً كبيراً من المؤلفات والجهود والأوقات، والتي عطلت أولويات الحوار وأضفت عليها حجاباً كثيفاً غيَّب منها المعاني الجميلة التي كانت تشع بها في السياق القرآني وفي نفوس الرعيل الأول من الصحابة وخيار الأمة.

ومن أظهر صور الحلم في الحوار العقدي ذلك الحوار المباشر بين النبي ﷺ والنصارى وكان "في السنة التاسعة للهجرة حين أرسل إلى نصارى اليمن يدعوهم، فأرسلوا وفداً منهم إلى المدينة للاطلاع على الأمر، وهو مشهور في كتب السيرة والتاريخ بوفد نصارى نجران"^(١).

وأسلوب النبي ﷺ في حوارهِ مع وفد نجران يمثل قمة الرقي الحضاري الذي عرفته الإنسانية على مدار تاريخها الطويل، في وقت نرى فيه تحولا في الحوار في مسائل أقل شأنًا تُقطع فيها الرقاب وتحرق في سبيلها الأجساد في مشارق الأرض ومغاربها قديماً وحديثاً مع العدو أو المخالف أو المخطئ، وجاءت سيرة محمد ﷺ نوراً يشع للبشرية يعلمها كيف تعفو وتصفح، وحوار النبي ﷺ مع نجران يضبط حواراتنا المعاصرة المخطط له مسبقاً كحلقات النقاش والتفاوض.. ليبين لأصحابها أنه ينبغي أن تكون نية العبد خالصة فيه لله بإظهار الحق والدفاع عنه، ومسألة النية كبيرة ليس هنا محل بسطها.

(١) محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، (ط. دار المعارف، القاهرة، ط. سادسة، د.ت) ج٣، ص١٣٩.

و"الآيات من أول سورة آل عمران إلى ثلاث وثمانين منها نزلت في مناسبة مجيء وفد نصارى نجران إلى النبي ﷺ" (١).

وفي هذه الآيات من السورة محاورة أهل الكتاب، حيث فتح باب الحوار معهم، وحين وصل الحوار إلى طريق مسدود بشأن إسلامهم، وأبوا إلا البقاء على دينهم، أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالمباهلة، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥١﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٥٢﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (٢).

والسنة ذكرت أطراف الحوار المذكور في الآيات فعن حذيفة قال: "جاء العاقبُ والسَّيِّدُ صَاحِبًا نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ، قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فَلَا عَنَّا لَا نُفْلِحُ نَحْنُ وَلَا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا، قَالَا: إِنَّا نُنْعِطُكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا، فَقَالَ ﷺ: لَا بَعَثْنَا مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ، فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، فَلَمَّا قَامَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ" (٣).

وعن جواز محاورة أهل الكتاب ومجادلتهم يعلق ابن حجر على حوار النبي ﷺ مع وفد نجران: "وفيها جواز مجادلة أهل الكتاب، وقد تجب إذا تعينت مصلحته، وفيها مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة" (٤).

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٨٠ وما بعدها.

(٢) سورة آل عمران: ٥٩-٦١.

(٣) أخرجه البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، كتاب المغازي، بَابُ قِصَّةِ أَهْلِ نَجْرَانَ (ط. دار طوق النجاة، ط. أولى، ١٤٢٢ هـ)، ج ٥، ص ١٧١.

(٤) ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، (ط. دار الفكر، د. ت) ج ٨، ص ٩٥.

وجاء في السيرة النبوية: "فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله ﷺ: أسلما، قالوا: قد أسلمنا، قال: إنكما لم تسلما فأسلما، قالوا: بلى قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، يمنعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً وعبادتكما الصليب وأكلكما الخنزير، قالوا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت عنهما رسول الله ﷺ فلم يجبهما، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية"^(١).

ويعلق الإمام الطبري على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصُّ الْحَقُّ وَمَا مِنَّ إِلَهِ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢) بقوله:

"فلما فصل جل ثناؤه بين نبيه محمد ﷺ وبين الوفد من نصارى نجران بالقضاء الفاصل والحكم العادل أمره إن هم تولوا عما دعاهم إليه من الإقرار بوحدانية الله وأنه لا ولد له ولا صاحبة، وأن عيسى عبده ورسوله وأبوا إلا الجدل والخصومة أن يدعوهم إلى الملاعنة، ففعل ذلك رسول الله ﷺ فلما فعل ذلك رسول الله ﷺ انخذلوا فامتنعوا من الملاعنة ودعوا إلى المصالحة"^(٣) عند ذلك أقروا بالجزية للمسلمين، فأحسن المسلمون إليهم وحفظوا لهم العهود التي أعطاهم النبي ﷺ حين وفدوا عليه بالمدينة"^(٤).

وفي حوار النبي ﷺ يظهر الأدب النبوي الجميل في حلمه مع المجادلين، رغم أنهم كانوا في مدينته ولم يمسه بأذى، بل أكرم وفادتهم وجادلهم بالحسنى كما أمره ربه، وكان حريصاً على إظهار الحق ليقم عليهم الحجة، وانتهى الحوار معهم بإقرارهم بالحق مع إعراضهم عنه، إذ لو صدقوا لباهلوا ولكنهم جنبوا عن المباهلة

(١) ابن هشام: السيرة النبوية: ج ١، ص ٤١٦.

(٢) سورة آل عمران: آية ٦٢.

(٣) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (ط. عالم الكتب، الرياض ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م). ج ٥، ص ٤٦٨ - ٤٦٩،

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، ص ٤٨٠ وما بعدها.

لعلمهم أنه نبي، وذلك كما فعل آل فرعون مع آيات موسى عليه السلام ﴿وَحَدِّثُوا بِهَا
وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾^(١).

ونتعلم من هذا الحوار أن على المحاور المسلم أن يبذل أقصى جهده مخلصاً
لله تعالى، وضرورة الرجوع بالحوار العقدي - وغيره - إلى سابق عهده فهماً سليماً،
والتزاماً واعياً، ودعوةً حكيمةً، لتكون الأمة بفهم أدب أقرب إلى مراد الله تعالى
منها، وأكثرها شبهاً بالنموذج الأمثل، نموذج الرعيل الأول بقيادة أسوة المؤمنين
وإمام المرسلين ﷺ، فإنَّ الحوار في العقائد بالذات أحوج ما يكون لهذا اللين والأناة
والحلم بهذا الاعتبار، كيف لا؟! والتسامح واللين والتلطف أساس العقيدة - محل
الحوار - التي يسعى المحاور لدعوة المخالف إليها، وقاعدته الصلبة، وروحها
السارية فيها، وأعمق خصائصها المميزة لها.

هذه حقائق وآداب ينبغي أن نستفيد منها ونتنبه إليها في حوارنا مع غير
المسلمين، ومشكلتنا في الحوار العقدي الآن أننا تحولنا من مهمة الدعوة إلى مهمة
الدفاع عن الاتهامات التي يكيلها لنا أهل الضلال والزيغ، وهو خطأ ينبغي تجاوزه.
ونحن نرغب إلى من يمارس الحوار العقدي اليوم أن يتأدب بأدب القرآن
وأدب النبي ﷺ في ذلك، وأيا كانت النتائج بالسلب أو بالإيجاب، فالله وحده يهدي
من يشاء، وليكن الهم الأول في الحوار هو إظهار الحقائق ودمغ الشبهات دون
خفض للجناح لباطل أظهره مجادلوه أهل الكفر في مثل تلك الحوارات، وهكذا
كان نهج احتواء المخالف واللين معه سلوكاً نبوياً لم يزل ملازماً للنبي ﷺ في
أصعب المواقف وأكثرها إثارة للغضب من قبل مخالفيه"^(٢)، والحوار العقدي عمل
من الأعمال، والأعمال بالنيات، فلا بد له من نية خالصة لله تعالى تتجه نحو غاية

(١) سورة النمل: آية ١٤.

(٢) رقية طه جابر العلواني، فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية، (نشر مؤسسة جائزة نايف بن
عبد العزيز آل سعود للسنن النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، المدينة المنورة ط. أولى،
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م) ص ٦٠.

واحدة وهي إحقاق الحق وإظهاره، إذ "ينبغي على المسلم ألا يدخل في حوار ما إذا لم يكن متأكداً من أن نيته لله عز وجل، فليس المقصود من الحوار أن يظهر المحاور براعته وثقافته أو أن يتفوق على الآخرين" (١) فالمراد الأول من الحوار إظهار الحق بوضوح وصدق ودون دس أو إبهام، فقد يحسن من المتكلم أحياناً ترك البيان والإفصاح عن مراده بعبارة واضحة، بل يدخل في التعمية على المخاطب إذا كان في ذلك مصلحة راجحة، فيتكلم بالمجمل ليجعل لنفسه سبيلاً إلى تفسيره بما يتخلص به، أو ليوهم السامع أنه أراد ما يخاف إفهامه إيّاه" (٢).

والشاهد أن الحوار بالحسنى أدب قرآني أمر به المرسلون على مر التاريخ، وحين أرسل الله تعالى موسى وهارون إلى فرعون الذي بلغ المدى في كفره فزعم أنه إله، قال تعالى لهما ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٤٤) (٣)، هذا مع علم الله تعالى المسبق أن فرعون لن يؤمن، وسيبقى على كفره حتى الغرق ولكنه مع ذلك أمرهما بما أمر ليكون ذلك نبراساً وأدباً ومنهاجاً مستمراً للدعاة إلى يوم القيامة، وإذا لم ينجح هذا الأدب مع فرعون، فلعله ينجح مع غيره فيتذكر أو يخشى.

وقد حاور النبي ﷺ اليهود مراراً وتكراراً، فما سبّ أحداً منهم ولا تنقصه بل كان على الدوام يحاورهم بالحسنى ويظهر احترام محاوريه ورغبته الشديدة في هدايتهم إلى الحق، حتى حين كانوا يشتدون في القول وينشرون الأكاذيب كعادتهم كان يقابلهم بالحسنى ويفضح أكاذيبهم، ومن ذلك سؤاله لهم في غزوة خيبر عن أهل النار، قال: "فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِي عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَا عَرَفْتَ كَذَبْنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي آيِنَا، فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ قَالُوا: نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُقُونَا فِيهَا! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: احْسَبُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لَا نَخْلُقُكُمْ فِيهَا

(١) تيسير محجوب الفتيا، الحوار في السنة (منشورات مركز الكتاب الأكاديمي عمان، الأردن ١٩٩٩م) ص ١٣.

(٢) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة، تحقيق علي دخيل الله، (ط. دار العاصمة، الرياض، السعودية، ط. أولى، ١٤٠٨ هـ) ج ٢، ص ٥٠٦.

(٣) سورة طه: ٤٢.

أبداءً..^(١).

والحوار العقدي يستدعي السير على نهج القرآن بالتركيز على الآثار العملية للإيمان وأركانه الستة، وبيان ثمار ذلك في الحياة الدنيا، سواء أكانت ثمارا مادية من توفير الأمن في الأوطان، والسعة في الأرزاق، والصحة في الأبدان، والقوة بمعانيها المتنوعة ونحو ذلك، أم ثمارا معنوية كالصحة النفسية، والطمأنينة القلبية، والسعادة الروحية ونحو ذلك مما تفتقده المجتمعات الإلحادية أو المادية.

كما يستدعي الحوار العقدي المعاصر مراعاة العصر الذي نعيش فيه، واهتمامات أفراد، والقضايا الساخنة المطروحة في الساحة، وهو ما يسمى بواجب الوقت، أو فقه الأولويات، وأن نتحكم نحن في إدارة الصراع الفكري والعقدي دون أن نُجر أو ننجر للدخول في قضايا لا تخدم أهدافنا الأساسية، ولا تتماشى مع خطتنا المنهجية، مع ضرورة مراعاة لغة العصر الذي نعيشه، فعصرنا كما يقال عصر العلم، ومنه علوم الفضاء وسائر العلوم التطبيقية على مختلف ألوانها وأبعادها، وهو عصر غلبت عليه النزعة الإنسانية، وقيم المذاهب الوضعية كالنفعية^(٢) والذرائعية^(٣)، ونحو ذلك، فينبغي أن نراعي ذلك في حوارنا العقدي، وإلا أصبحت الهوة واسعة بيننا وبين قومنا، وبيننا وبين الناس أجمعين، مع الحرص والحذر في استخدام المصطلحات المعاصرة أثناء تحميلها المعاني الشرعية، ومعالجة قضية الإيمان من خلال قضايا مجتمعاتنا على مختلف مستوياتها وأنواعها، فهكذا كانت دعوات

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية والموادعة، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين، هل يُعفى عنهم، ج ٤، ص ٩٩.

(٢) النفعية هي: نظرية وضعها ديفيد هيوم، تقول بأن الملكية الخاصة تقليد اتبعه الناس وينبغي عليهم أن يتبعوه لأن في ذلك منفعتهم.. انظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، إصدار: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني (ط. دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، د.ت) ج ٣، ص ١٧٦.

(٣) الذرائعية هي: مذهب فلسفي اجتماعي يقول بأن الحقيقة توجد في جملة التجربة الإنسانية: لا في الفكر النظري البعيد عن الواقع. وأن المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما: هو في كونها مفيدة للناس، وأن الفكر في طبيعته غائي، انظر المرجع السابق، ج ١، ص ١٥٧.

الرسول، والحذر من التغافل عن القضايا الملحة، والتحليق بالناس فيما لا يعينهم من مشاكل اجتماعية لا يعيشونها ولا يعانونها، أو تضييع الأزمان وإتاعب الأذهان في معالجة افتراضيات لا وجود لها في الساحة، كما يلزم المحاور أن يستفيد من علوم العصر لا سيما القطعية منها في ترسيخ قضايا الإيمان في النفوس والبرهنة على عدم التعارض بين كلمات الله الشرعية وكلماته الكونية، وفي هذا الصدد ندعو إلى التوسع في بيان الإعجاز القرآني في مجالات العلم التجريبي والظواهر الكونية والنفسية، وفي مجالات العلوم الاجتماعية ونحو ذلك من اهتمامات العصر، فالمعجزة تكون عادة فيما برع فيه القوم، وأقوامنا برعوا فيما تقدم ذكره، والقرآن لا تنقضي عجائبه، كما يلزم المحاور في العقائد أن يربط قضايا السلوك بالمعتقد، على أنها أثر من آثار الإيمان الصحيح، وقد تكون من لوازمه، فأغفال جانب التأسيس العقدي لكثير من الأمور العملية السلوكية كان سببا في هذا الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون، المتمثل في إقصاء شريعة الرب تعالى عن كثير من مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، حتى صار لديهم استعداد نفسي لتقبل الفلسفة العلمانية.

* * *

الخاتمة

حاول الباحث في هذه الدراسة سائلا الله تعالى الإخلاص في القصد لله تعالى، مؤملاً فيه تأصيلاً قرآنياً للحوار مبرزاً تسنمه لذروة البرهان والحجة مع روعة وجمال الأدب في ممارسته، ومن خلال هذه الدراسة وصل الباحث إلى عدة نتائج وتوصيات يبرز لها فيما يأتي:

أولاً: أهم النتائج:

١. عظمة الحوار القرآني وقوة حجته وصلاحيته منهجا يضمن للإنسانية حياة آمنة وتعايشا كريما يقوم على الوثام على أعلى رتب المفهوم الإنساني، ومواكبة هذا الحوار لقضايا العصر وتحدياته.
٢. أن الحوار القرآني العقدي حوار هادف، لا يرجى من ورائه سلطة ولا مال ولا جاه، فقاعدته الإخلاص وهدفه رضا الله وإعلاء كلمته وطلبة نشر توحيده وتصحيح عقائد المنحرفين ووجهات الضالين
٣. أن الحوار العقدي في القرآن يتسنى ذروة الأدب مقالا وأداءً وعرضاً وطلباً ومحاجة وجدلاً، فهو يسبق كل منهج أرضي وضعي في الحوار رسمته عقول الاجتماعيين والسياسيين والفلاسفة والمناطقية وأنساقهم وأدعياء الإصلاح والحداثة والفكر المعاصر.
٤. أن حوار غير المسلمين في القرآن الكريم يخاطب العقل والقلب والوجدان، فهو يتسم بالإقناع لكل المخالفين العقلانيين والماديين وأنساقهم.

ثانياً: أهم التوصيات:

١. ضرورة التصدي للتيارات والمذاهب الوضعية المعاصرة وبيان عوارها، وكشف أساليبها، كل ذلك من خلال حوار عقدي يبدأ بالدعوة وبيان الحجة والبرهان على صدق عقيدة الإسلام.
٢. تأسيس مؤسسات حوارية متخصصة في فن الحوار والإقناع، مؤهلة لتحمل تبعاته على نسق ما تحمله الأنبياء والدعاة المصلحون، بعيدة عن الجدل العقيم

والمراء العليل السقيم.

٣. الإكثار من المؤتمرات والندوات العلمية التي تخاطب المتصدرين للحوار مع الآخر لتوضيح منهج الإسلام الحق في محاوراة أهل الزيغ على أساس الحكمة والموعظة الحسنة.

هذا، وأسأل الله التوفيق والسداد في القول والعمل، وصلى الله على نبينا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً..

* * *

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم أبو العباس: الرد على المنطقيين (ط. دار المعرفة، بيروت - لبنان، د.ت).
٣. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز ومحب الدين الخطيب، (ط. دار الفكر، د. ت).
٤. ابن العربي؛ محمد بن عبد الله الأندلسي، أحكام القرآن، (ط. دار الكتب العلمية، د.ت)
٥. ابن القيم، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، زاد المعاد في هدي خير العباد، (ط. مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م).
٦. ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة، تحقيق علي دخيل الله، (ط. دار العاصمة، الرياض، السعودية، ط. أولى، ١٤٠٨ هـ).
٧. ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفيقي المصري، لسان العرب، مادة حور (ط. دار صادر، بيروت، لبنان د، ت).
٨. ابن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، (ط مؤسسة الريان، لبنان د.ت)
٩. ابن هشام، عبد الملك بن هشام المعافري، السيرة النبوية، تحقيق: سهيل زكار، (ط. دار الفكر، بيروت، ط. أولى ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م).
١٠. أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، مادة حور، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (ط دار الفكر - بيروت ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م).
١١. أبو زهرة، محمد: المعجزة الكبرى، (ط. دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت).

١٢. أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي (ط. دار ومكتبة الهلال، د. ت.).
١٣. أبو عبد الله الحسين الزوزني، شرح المعلقات السبع، معلقة عنتر بن شداد، (ط. مكتبة المعارف - بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م.).
١٤. أبو القاسم إسماعيل ابن عباد بن العباس بن أحمد بن إدريس الطالقاني، المحيط في اللغة، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، (ط. عالم الكتب - بيروت - لبنان - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ م.).
١٥. أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل، بتحقيق: عبد الرزاق المهدي (ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، د. ت.).
١٦. أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي، بحر العلوم، بتحقيق: د. محمود مطرجي، (ط. دار الفكر - بيروت - د. ت.).
١٧. أحمد كمال أبو المجد، حوار لا مواجهة، (ط. دار الشروق، القاهرة ١٩٨٨ م.).
١٨. الأصبهاني، إسماعيل بن محمد أبو القاسم: الحُجَّة في بيان المحجة، بتحقيق محمد ربيع بن هادي المدخلي، (ط. دار الراية، الرياض، السعودية، ط. أولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠ م.).
١٩. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (ط. دار طوق النجاة، ط. أولى، ١٤٢٢هـ.).
٢٠. البيهقي، أحمد بن الحسين، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، بتحقيق: أحمد عصام الكاتب (ط. دار الآفاق الجديدة - بيروت، طبعة الأولى، سنة ١٤٠١).
٢١. تيسير محجوب الفتيا، الحوار في السنة (منشورات مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، الأردن، ١٩٩٩ م.).

٢٢. جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، (مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط. خامسة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
٢٣. الجزائري، جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، (مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط. خامسة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م).
٢٤. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، (ط. دار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ط. أولى، د. ت.).
٢٥. حسن محمد وجيه: مقدمة في علم التفاوض السياسي والاجتماعي، سلسلة عالم المعرفة (الكويت، ربيع الآخر ١٤١٥هـ - أكتوبر ١٩٩٤م).
٢٦. رقية طه جابر العلواني، فقه الحوار مع المخالف في ضوء السنة النبوية، (نشر مؤسسة جائزة نايف بن عبد العزيز آل سعود للسنة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، المدينة المنورة ط. أولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).
٢٧. زاهر بن عواض الألمعي، مناهج الجدل في القرآن الكريم، (ط. مطابع الفرزدق التجارية، السعودية، د. ت.).
٢٨. الزرقاني، محمد عبد العظيم: مناهل العرفان، (ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د. ت.).
٢٩. الزركشي، محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ط. عيسى البابي الحلبي، مصر، ط. ثانية، ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م).
٣٠. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتيقان في علوم القرآن، (ط. البابي الحلبي، القاهرة، ط. رابعة، ١٣٨٩هـ - ١٩٧٨م).
٣١. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: معترك الأقران في إعجاز القرآن، تحقيق علي محمد البجاوي، (ط. دار الثقافة العربية للطباعة، بيروت، لبنان،

- ١٩٦٩ م).
٣٢. فهد بن عبد الرحمن الرومي، خصائص القرآن الكريم (ط. مكتبة الحرمين، السعودية، ط. ثانية، ١٤٠٩ هـ).
٣٣. اللالكائي، هبة الله بن الحسن أبو القاسم، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم، بتحقيق أحمد سعد حمدان، (ط. دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية).
٣٤. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب، (تفسير الماوردي) النكت والعيون، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم (دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان - د. ت).
٣٥. محسن بن محمد بن عبد الناظر، حوار الرسول ﷺ مع اليهود: (ط. دار الدعوة، الكويت، ط. أولى، سنة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م).
٣٦. محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (ط. دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت - لبنان - سنة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م).
٣٧. محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، (ط. دار المعارف، القاهرة، ط. سادسة، د. ت).
٣٨. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (ط. عالم الكتب، الرياض ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م).
٣٩. محمد صادق عرجون، القرآن العظيم؛ هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، (مكتبة الكليات الأزهرية، ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م).
٤٠. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤ هـ).
٤١. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، (ط. السعادة، مصر، ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م).
٤٢. محمد الغزالي، الجانب العاطفي من الإسلام، (ط. نهضة مصر، ط. أولى، سنة

٢٠٠٥ م).

٤٣. محمد الغزالي، عقيدة المسلم، (ط. دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط. رابعة) ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م).

٤٤. محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، (ط. دار الهداية، د. ت.).

٤٥. محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت، ط. أولى - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م).

٤٦. محمود شيخون، من أسرار البلاغة، (ط. مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤٠٤ هـ).

٤٧. محمود محمد عمارة، من أجل حوار لا يفسد للود قضية، (ط. مكتبة الإيمان، المنصورة ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م).

٤٨. محي الدين صبحي: المسلمون والبرابرة ومعارك الحضارات، مقال بمجلة الاجتهاد السنة (بيروت ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م).

٤٩. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (ط. دار إحياء التراث العربي - بيروت، د. ت.).

٥٠. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي، أسباب النزول (ط. مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، د. ت.).

* * *